من موقعة نارفا إلى النصر
في معركة بولتافا

لم يترك تحرير نارفا، وكذلك انتصارات الرُوس الأخرى في البلطيق انطباعًا كبيرًا في أوربا الغربية، ومن الغريب أن أوربا نفسها صفقت للملك السُويدي كارل الثَّاني عشر، وهللت لجيشه قبل أربعة أعوام من ذلك، عندما منيت العسَاكر الرُوسية بالهزيمة عند أسوار نارفا، أما الأن فهي تواجه الأحداث بصمت فيه الكثير من الاستهانة، أو بمخاوف فيها نفس القدر من الصَّمت، إلا أن بعض الأوربيين، من الدبلوماسيين في المقام الأول، أخذوا ـ بدافع من واجب الخدمة على الأكثر ـ يعترفون بنجاحات روسيا وقيصرها، وكتب كلوتشيفسكي يقول: «لكن الجانب الرُوسي أيضًا لم يتخلص بعد من رجفة نارفا في عام ١٧٠٠»، فبعد موقعة نارفا، على حد تعبيره، «بدأ استنزاف متبادل متقطع استمر سبعة أعوام»: كان كارل الثَّاني عشر يُلاحق أغسطس الثَّاني في بولونيا، ويساعد بالتالي بطرس الذي استفاد من «هذه الاستراحة»، فدبر أمور جيشه المشوشة، و«هيأه لعمليات كبرى، بالمشاركة في مناوشات وغزوات وحصارات وهجمات طفيفة، على القلاع الحدودية الضعيفة، ولم يبخلوا بالضحايا ولم يعبأوا بأحوال الشعب، وجازفوا ولعبوا بآخر الأموال، ووعدوا حليفهم بمعونة مالية دون أن يعرفوا من أين يدفعونها له».

كان ذلك و واقع الحال بالأساس، مع أن كلوتشيفسكي يستصغر ـ كما هو واضح ـ أهمية الانتصارات الحربية التي أحرزتها القوات الرُوسية بعد هزيمة نارفا، والحقيقة فإن هذه الانتصارات جعلت الرُوس يثقون بقواهم، وبإمكانياتهم في سوح القتال، بل وأسفرت عن تحرير عدد من المناطق من الاحتلال السَويدي على السَاحلين الشرقي والجنوبي للخليج الفنلندي، ونشطت تنظيم أمور الجيش، وتغيير جهاز الدولة، وبناء الأسطول في البلطيق، وباختصار، فقد أرسيت بداية العمل الذي كان سيؤدي في المستقبل ـ وهو مستقبل قريب نسبيًا ـ إلى نجاحات كبيرة، عسكرية وسياسية واقتصادية.

وبعد هزيمة نارفا، بذل بطرس ودبلوماسيوه محاولات لجعل الدول الغربية تتوسط في عقد الصُلح مع السُويد، إلا أن تلك الدول وجدت في تلك المحاولات دليلًا على ضعف روسيا، ولم يكن هذا الرأي بعيدًا عن الحقيقة، أما الأن، بعد الانتصارات التي تحققت، ومنها الانتصار في نارفا، طرح الرُوس هذه المسألة من جديد، وبذل ماتفييف بخاصة جهودًا كبيرة في هذا المجال، وكان آنذاك ممثلًا دائميًا لروسيا في لاهاي، قام برحلات إلى لندن أيضًا لهذا الغرض، إلا أن البلدان الأوربية كانت في شغل شاغل، فهي تحارب من أجل التركة الأسبانية، أضف إلى ذلك عوامل أخرى مثل الاستهانة بروسيا «الهمجية» الضعيفة من جهة، ومن جهة أخرى الخوف منها ومن قوتها المتزايدة، ومن انتصارات الجيوش الرُوسية، وكانت تلك الاستهانة وذلك الخوف متشابكين متجاورين، وقد لاحظ ماتفييف إمارات الخوف بادية، فكتب إلى بطرس يقول:

ـ لا أمل في توسط هولندة وملكة بريطانيا لإنهاء الحرب.

فهما نفسيهما تخافان منكم، فكيف تبذلان جهدًا لصالحنا، ومن أجل الصُلح النافع، وتفتحان بنفسيهما باب بحر البلطيق أمامكم، وهما تلتزمان الحذر بعين ساهرة، وترتجفان من قوتكم العظيمة، لا أقل من قوة الفرنسيين، وقد علمت علم اليقين أن بريطانيا وهولندة أرسلتا توجيهات سرية إلى مبعوثيهما في بولونيا، لتحقيق التصالح بين السَويد وبولونيا وحدها بدونكم.

وبذلت بريطانيا وهولندة وحليفتهما النمسا، وكذلك عدوتهما المشتركة فرنسا في الحرب من أجل التركة الأسبانية قصارى الجهود لاستمالة السَويد، وجيشها إلى جانبها، والحيلولة دون تعزز روسيا التي يجب ـ في رأي هذه الدول ـ إلهاؤها بالقتال ضد الأستانة والقرم وإضعافها، واعتراض طريقها إلى بحر البلطيق، ولذا لم تجد طلبات روسيا للتوسط في عقد الصُلح مع السَويد إذنًا صاغية في لاهاي ولندن وفينا، أما ملك السويد الذي يعتبر رسميًا حليفًا لبريطانيا وهولندة من جهة، ولفرنسا من

جهة أخرى، فقد طلب معونة مالية من الجهتين، وكان يتلقى تلك المعونة، ولم يتمكن ماتفييف في لاهاي ولندن، ولا الأمير غوليتسين في فينا من أن يفعلا شيئًا.

و نجح ب. تولستوي السَفير الرُوسي في الأستانة في الحيلولة، دون استئناف الحرب من جانب الإمبراطورية العثمانية ضد روسيا، فقد تمكن من رشوة الوجهاء من أعوان السُلطان، وفضح دسائس الوزراء والسفراء الغربيين.

وفي بولونيا، في ظل الفوضى السَياسية الإقطاعية، وانعدام القيادة الموحدة، حقق السَفير الرُوسي الأمير دولغوروكي نجاحات معينة، وواجه بطرس مشاكل كثيرة مريرة سببها له «صديقه وحليفه» أغسطس الثَّاني حاكم سكسونيا وملك بولونيا، وهو رجل غير أمين، وضعيف كشخصية سياسة وعسكرية، وقد نعته المعاصرون «بالقوي»، لكن قوته ليست في سوح القتال (كانت جيوشه تمنى بالهزائم دوما)، بل في السُكر والمجون والتحكم في أفئدة الغواني، وكان «حليف» بطرس هذا قد حاول من وراء ظهره أن يتفاوض مع ملك السُويد بشأن توقيع الصُلح، وتوسطت في ذلك النمسا وفرنسا (اللتان لبتا طلب الوساطة)، وكذلك معشوقات أغسطس، لكن كارل الثَّاني عشر رفض الصُلح رفضًا قاطعًا، مع أن مجلس الدولة في استوكهولم توسل إليه:

ـ انطلاقًا من مشاعر الولاء الخالص، والعطف على الشعب البائس، نتوسل إلى جلالتكم أن تتخلصوا على الأقل من أحد الخصمين، والأفضل أن تتخلصوا من خصومة ملك بولونيا.

وكان ملك السويد في شغل شاغل عن توسلات أعوانه، وعن بؤس الشَعب، فقد كان يستولى على المدن والأراضي البولونية، وينوي إخضاع بولونيا كلها، إلا أن الفوضى المتفشية هناك تعرقل ذلك، رغم وجود أنصار له بين كبار أصحاب السُلطة المحلية، مثل كبير الكرادلة

رادزيفسكي، وبعض النبلاء والإقطاعيين (الكونت سابيغا وغيره)، وبمساعدتهم «جهز» كارل الثَّاني عشر (على حد تعبيره) ملكًا جديدًا للبولونيين بدلًا من أغسطس الثَّاني، فإن مجلس السيم الذي دعا الكردنال لعقده في وارشو أطاح بالملك السكسوني، ونصَّب ستانيسلاف ليشينسكي ملكًا للبلاد، وهو شاب لا يتمتع بنفوذ، وعارضت صنيعه السويديين كتلة أخرى من الملاك أعرب ممثلوها في السيم في ساندومير عن تأييدهم لأغسطس، فإن الاحتلال السُويدي، وتعسف الغزاة جعلا الكثيرين من البولونيين يمعنون التفكير في الموقف، وبالنتيجة صار للبلد ملكان وأسفرت الحزازات الضَارية عن تفشي الاضطراب والفوضى الإقطاعية، لدرجة لم يسبقها مثيل.

وكان بطرس وغولوفين رئيس مديرية العلاقات الخارجية يتابعان الأحداث في بولونيا باهتمام، فإن فقدان الحليف الوحيد شيء غير محمود إطلاقًا، وراح دولغوروكي يهدئهما قائلًا:

ـ لا تفكر كثيرًا في الأرنب الذي نُصِّب ملكًا جديدًا في وارشو (المقصود ليشينسكي ـ المؤلف)، فقد اختير الشَّخص الأسهل بالنسبة لنا، فهو شاب لا يتمتع بالشهرة والمال في بولونيا، وحتى أقرب المقربين إليه لا يقيمون له وزنًا.

كان بطرس يطبق سياسة حذرة بالنسبة لبولونيا، وخففت روسيا مطالبها فيما يخص حماية الأرثوذكس في الأراضي البولونية، (حيث ارغموا على اعتناق الكاثوليكية)، وساعدت على إخماد الانتفاضة التي قادها سيميون بالي في مناطق أوكرانيا الواقعة على ضفة الدنيبر اليمنى، ضد جور الإقطاعيين البولونيين، وكانت لهذا النَّهج سلبياته بالطبع، إلا أنه عاد بثمار معينة، ففي أواخر صيف ١٧٠٤، في أعقاب تحرير نارفا وقّعت روسيا على مقربة من هذه القلعة معاهدة تحالف مع بولونيا، حيث التزمت كلتا الدولتان بخوض الحرب ضد السويد، وعدم توقيع صلح انفرادي معها، وفي مقابل ذلك وعدت روسيا بتسليم ليفلانديا إلى بولونيا،

وإرسال قوات روسية من ١٢ ألف شخص لنجدتها، كما قدمت روسيا معونة مالية سنوية بمبلغ ٢٠٠ ألف روبل للإنفاق على الجيش البولوني المكون من ٤٨ ألف شخص، وتخلى الجانب البولوني عن المطالبة بإعادة النظر في«الصلح الأبدي» لعام ١٦٨٦، وعلى وجه التحديد تخلى عن المطالبة بكييف، وبعض المناطق الأخرى.

تعتبر المعاهدة مع بولونيا، (قبل ذلك وقعت معاهدات مع أغسطس الثَّاني فقط بوصفه حاكمًا لسكسونيا)، وثيقة هامة في السياسة الخارجية و نجاحها لدبلوماسية بطرس الأكبر، والأهم أن قوات كارل الثَّاني عشر ظلت كالسَّابق تقاتل في بولونيا، وقد تورط الملك السويدي هناك لأمدٍ طويل، أما الجيوش الروسية فقد كانت آنذاك تقاتل بنجاح في أماكن أخرى، وتكسب الأراضي في اينغريا واستلانديا وليفلانديا، وتستعد للمعارك المرتقبة مع «المتهور الإسكندينافي» نفسه، وأرسل بطرس إلى بولونيا مساعدات حربية، أكثر من ١٠ أفواج روسية، وفي صيف ١٧٠٤ دخل أغسطس الثاني مدينة وارشو بمساعدة تلك آلافواج، ولكن كارل سرعان ما اقترب من المدينة، فانسحب أغسطس دون أن يشتبك معه في قتال، وتكبدت جيوشه خسائر جديدة متلاحقة تحت ضربات السويديين.

وكان بطرس يتابع على الدوام ما يجري في الأستانة، ويهتم ببناء سفن جديدة في فورونيج، فالأسطول الجنوبي كان لا يزال يؤمَن الاستقرار في حوض البحر الاسود، ورغم الإخفاق في تنظيم وساطة الصُلح ظلت روسيا كالسابق تشتري من أوربا الغربية السَلاح والذخيرة، وتستأجر الإخصائيين، وكانت تصريحاتها بشأن الرغبة في توقيع الصُلح مع السويد (بشرط أن تحتفظ روسيا ببعض الأراضي التي كسبتها في الخليج الفنلندي، مثل بطرسبورغ وضواحيها على الأقل) قد خففت من حدة العداء للروس في سياسة بعض القوى المتنفذة، واستفاد بطرس وحكومته بمهارة من التناقضات بين البلدان الأوربية، ومن الملابسات الملائمة المرتبطة بالحرب من أجل التركة الأسبانية.

كان الموقف في أوربا آنذاك معقدًا ومشوشًا لدرجة كبيرة، ففي إيطاليا وأسبانيا وهولندة وغرب ألمانيا تجري عمليات حربية بين فرنسا من جهة، والنمسا وهولندة وبريطانيا من جهة أخرى.

وفي شرق البلطيق وبولونيا تقاتل الجيوش الرُوسية والبولونية والسكسونية ضد القوات السويدية، وكانت كل البلدان المتحاربة وحليفاتها تتوخى أهدافًا معينة، وقد انتشرت آنذاك في غرب أوربا مقالة هزلية تصور وضع تلك البلدان بشكل مجازي في شخوص لاعبي القمار (إنجليزي وعثماني وغيرهما)، وكل منهم يقول:

- عندي ورقات رابحة (بريطانيا).
- هل أربح أم أخسر (فرنسا)؟
- لعبت حتى خسرت الكثير، ولا أريد أن أخسر أكثر (الإمبراطورية العثمانية).
- ألعب وأربح على طول، لكنني لا أملك ما أربحه (السويد).
- يا أخي أغسطس، العب بجرأة، وسأدفع بدلًا عنك (روسيا).

كانت أهم قضية بالنسبة لروسيا هي تورط السويديين وملكهم في بولونيا، وقد استفاد بطرس، بسياسته الحكيمة الحذرة، ومساعداته المالية والحربية من تلك «المدفوعات» التي تشير إليها المقالة الآنفة الذكر، وكان حليفه الوحيد في تلك السنوات قد ساعده في الحرب، رغم عدم أمانته، وذلك عندما شاغل قسمًا من القوات السويدية، ورغم الانتصارات السهلة استنزفت قوى جيش كارل في بولونيا، وكان يخسر على الدوام من الناحية الاستراتيجية، أما روسيا فقد أحرزت انتصارات متلاحقة في شرق البلطيق، والأهم هو أنها ظلت تكسب مزايا استراتيجية متزايدة مع مر الزمن، مع أن الانتصارات الحاسمة كانت لا تزال بعيدة.

وبدأ العام الجديد، عام ١٧٠٥، أمضى بطرس كانون الثاني (يناير) في موسكو، وارتحل في شباط (فبراير) إلى فورونيج، حيث أمضى شهرين يعمل أسطة في بناء السفن، وأنزل إلى الماء سفينة مسلحة بـ ٨٠ مدفعًا،

وبأمر منه كان سيصار إلى بناء أكثر من عشرين سفينة حربية أخرى، فيجب متابعة الأستانة، كما كان يتصور بعين ساهرة، كيلا يحدث مالا تحمد عقباه، وبعد ذلك تهيأ للرحيل إلى بولونيا، فهناك، في بولوتسك وفيتيبسك، ترابط عساكر روسية بقيادة ريبنين وشيريميتيف، يبلغ تعدادها ٦٠ ألف شخص، فقد خصص بطرس لأغسطس الثّاني فيلقا مساعدًا بالإضافة إلى القوات السكسونية البالغ تعدادها ٤٠ ألفا، إذ عليه أن يدعم كتلة ساندومير المناهضة للسويد.

وعندما غادر القيصر مدينة فورونيج تمرض في بداية آيار (مايو) ومكث في موسكو بسبب مرضه زهاء شهر، وفي مطلع الصيف، وصل إلى بولوتسك لكثرة الأشغال والمخططات والمشاكل، عين بطرس على رأس القوات الرّوسية المرابطة في بولونيا قائدين هما: الفيلدمارشال الرّوسي شيريميتيف، والفيلدمارشال الألماني العجوز أوغيلفي، الذي خدم قبل ذلك في الجيش النمساوي دون أن يحالفه التوفيق، وكانت لقرار بطرس هذا، غير الصّائب طبعًا، عواقب غير محمودة، كانت هناك خلافات سافرة بين أوغيلفي من جهة، وشيريميتيف والجنرالات الرّوس الآخرين من جهة ثانية، وفيما بعد تباطأ هذا الألماني في تنفيذ أوامر بطرس نفسه، وكان يتراسل سرًا مع أغسطس...

وعندما وجه القيصر أفواجه إلى بولونيا في خريف ١٧٠٤ كان مهتمًا بجعلها تُساعد أغسطس في «عمليات جزئية»، دون أن تتورط في معركة شاملة ضد السويديين، وتتحاشى «الأعباء الثقيلة» لأن الوقت لم يحن بعد للعمليات الحاسمة ضد كارل، وواصل بطرس نهجه هذا عندما جاء إلى بولوتسك في مطلع صيف ١٧٠٥، فقد اجتمع مع وزراؤه وجنرالاته، وحضر الفيلدمارشالان اللذان يكرهان بعضهما البعض أشد الكره، وقرروا في اجتماع عسكري إرسال ١١ فوجًا بقيادة شيريميتيف إلى كورلانديا، وسرعان ما وصلت من هناك أخبار غير سارة، فالجنرال ليفينهاوبت دحر الرُوس في معركة مورميز في ١٥ تموز (يوليو)، وقد تألم شيريميتيف أشد

الألم لهذه الهزيمة، وهو الذي أحرز عدة انتصارات على السويديين، وكتب بطرس في رسالة إلى شيريميتيف عن سبب الهزيمة: «سوء تدريب الخيالة» الذين راحوا يلاحقون السويديين بتهور، وبدون تعقُّل فوقعوا في شراكهم، وأمر بطرس بأن يوضحوا لكل الجنود والفرسان عدم جدوى مثل هذا التصرف في سوح القتال، وراح يهدئ من روع الفيلدمارشال شيريميتيف:

- لا تحزن على المصيبة الفائتة (لأن الانتصارات المتواصلة أهلكت الكثيرين)، بل انس وحاول أن ترفع المعنويات.

وأسرع القيصر بأفواجه الجديدة إلى كورلانديا، وحاول مع شيريميتيف أن يقطع على ليفينهاوبت طريق الانسحاب ويدحره، لكنه أخفق، فالجنرال ليفينهاوبت تمكَّن من الانسحاب إلى ريغا، إلا أن القوات الروسية استولت في ٤ أيلول (سبتمبر) على ميتافا عاصمة كورلانديا، ثم استولت على قلعة باوسك، وكسبت غنائم كثيرة بينها حوالي ٢٠٠ مدفع، وقبل تلك الأحداث بوقتٍ قصير نجح ميشيكوف في صد هجوم شنته القوات السويدية على بطرسبورغ.

واقترب الشِّتاء، وكان يجب اختيار أماكن دافئة لمرابطة الجيش، وبناء على اقتراح من مينشيكوف اختاروا مدينة غرودنو لهذا الغرض، ورفضوا اقتراح أوغيلفي بشأن موضع ميريتش لمرابطة الجيش في الشتاء، وانشغل القيصر طول الخريف في تدبير إقامة الجيش، وصار يتنقل بين نيكوتين وغرودنو، وكتب في إحدى رسائله متشكيًا:

- لم أركب الخيل طول حياتي مثلما في هذا العام، ولم أتحمل متاعب بهذا القدر.

ووردت في ختام رسالة أخرى عبارة ذات دلالة:

- كتبتها وأنا على ظهر الحصان في الطريق إلى تيكوتين.

وفي أواخر تشرين الأول (أكتوبر) وصل أغسطس إلى غرودنو سرًا، من سكسونيا عن طريق المجر باسم مستعار، ورافقه في رحلته تلك ثلاثة

أشخاص فقط، وقلد الكثيرين من الجنرالات الرُوس وسام النسر الأبيض الذي استحدثه تواً، وترك بطرس جيشه في عهدة الملك أغسطس وأوغيلفي، وارتحل إلى موسكو في كانون الأول (ديسمبر).

وفي كانون الثاني (يناير) من العام التّال، تلقى بطرس نبأ أثار قلقه بشدة، فبعد أن نصَّب كارل الثّاني عشر صنيعته ليشينسكي ملكًا في وارشو، زحف فجأة على غرودنو بجيش من ٢٠ ألف رجل، اقترب منها دون أن يتجرأ على اقتحام القلعة التي ترابط فيها عساكر روسية من ٤٠ ألف رجل، وسحب الملك السُويدي قواته على مسافة أكثر من ٧٠ كيلومترا عن غرودنو، لكنه حاصر العدو، وهددت الرُوس المجاعة والهلاك بسببها، وطلب القيصر سحب قواته من غرودنو:

ـ ينبغي المراقبة الدقيقة لعمليات العدو كيلا تنقطع قواتنا عن حدودنا، فالانسحاب السليم أفضل من الانتظار المجهول.

وفي تلك الأثناء اندلعت انتفاضة شعبية في استراخان (١٧٠٥ـ١٧٠٦)، أقلقت القيصر أشد القلق، فأرسل إلى هناك قوات ترأسها الفيلدمارشال شيريميتيف نفسه، وراح يتابع كل ما يجري هناك، إلا أن الخطر الذي تهدد الجيش في غرودنو جعله يوجه جُل اهتمامه إليه، وينقل جهوده من الجنوب الشرقي (استراخان) إلى الشمال الغربي (غرودنو)، وفي زمهرير الشِّتاء، وصقيعه الفظيع أسرع متوجها إلى غرودنو لكنه لم يصلها، فقد سبقه كارل إليها، وأقام القيصر في أورشا ثم في دوبوفكا، وبعث الرُسل مرارًا إلى أوغيلفي يطالبه بسحب الجيش، وكتب يقول:

ـ ما أشد حزننا لغيابنا عن العساكر. (من رسالة إلى غولوفين في موسكو في ٣١ كانون الثاني /يناير).

ـ ما أشد حزننا لعدم تمكننا من الوصول إليكم، اللّه وحده يعلم بمكنون النفوس ... رسالة إلى ريبنين في غرودنو بتاريخ ٦ شباط/ فبراير).

آنذاك في شباط، تألم القيصر لاندحار القوات السكسونية من جديد، في معركة فراويرشتادف فز ٣٠ ألف جندي من قوات أغسطس حالما ظهر ٨ ألاف سويدي بقيادة الجنرال رينشيلد، ولم يبق في ساحة القتال إلا الأفواج الرُوسية من الفيلق المساعد، حيث ظلت تصد هجمات السويديين أربع ساعات، لكنها مُنيت بالهزيمة لعدم تناسب القوى، وأجهز السويديون على الجرحى والأسرى الرُوس دون رحمة، أما قافلة العربات الرُوسية، فقد نهبها الحلفاء السكسونيون أثناء الانسحاب.

واشتاط بطرس غضبًا بسبب «المعركة الخيانية» لهؤلاء السكسونيين «الطفيليين» الذين «تركوا رجالنا لوحدهم» في ساحة القتال، ولم تكن تخامره أوهام بشأن حليفه:

ـ هذه الحرب ستقوم على أكتافنا وحدنا.

ومع ذلك هدأ بطرس من روع أغسطس«صديقه وأخيه وجاره»، ونصحه باستبدال المحاربين السكسونيين البلهاء بالمرتزقة الدانمركيين، وأدرك بطرس أن الهزيمة في فراويراشتادت قد عقدت أمور الجيش الرُوسي في غرودنو، زد على ذلك أن أوغيلفي تجاهل أوامر القيصر، وهو ينوي أن ينتظر مع جيشه فصل الصَيف حيث يترك كارل هذه الأماكن، كما يتصور، أو يصل إليها أُغسطس وعساكره، وبعث القيصر أوامر إلى ريبنين متخطيًا الفيلدمارشال الأجنبي الذي لا يثق به، واشتبه ريبنين أيضًا في نوايا أوغيلفي، فطلب من القيصر إصدار أمر سري في حالة قيام أوغيلفي بأعمال غير مرغوب فيها:

ـ ماذا يتعين علينا أن نفعل إذا رأينا تصرفًا يتعارض مع مصالح الدولة؟

كان بطرس لا يزال مضطرًا إلى استخدام الأجانب، وتعيينهم في مختلف المناصب، بما فيها مناصب ذات مسؤولية كبيرة، وغالبًا ما كان شرهم أكثر من خيرهم، والمثال على ذلك هو باتكول الذي استخدمه بطرس في السَلك الدبلوماسي بتزكية من أغسطس، بعد أن حقد عليه هذا الأخير بسبب نزعته المغامرة، وتخلص منه بترحيله إلى «صديقه وأخيه»

الرُوسي، لقد ألحق باتكول ضررًا كبيرًا بالدبلوماسية الرُوسية، وأزعج الدبلوماسيين الرُوس في فينا ووارشو وغيرهما.

وبخصوص أوغيلفي الذي وثق به القيصر على أية حال، رغم علمه بأنه يعامل الجنرالات والجنود الرُوس باستهانة وازدراء، اتخذ بطرس أخيرًا إجراء أشد حزمًا، حيث أرسل إلى غرودنو صديقه الحميم مينشيكوف مع أمر صارم إلى جميع الجنرالات:

ـ فلتكن ثقتكم به كثقتكم بي.

ظل أوغيلفي يعارض انسحاب الجيش معتقدًا بأن ذلك يلحق ضررًا بكرامة القيصر وأمجاده، وكتب إليه يقول:

ـ من المؤسف أن يضيع صاحب الجلالة أمجاد سلاحه الذي كان يجلجل دومًا من قبل بانسحاب مفاجئ مشين، وبذلك يجلب على نفسه الهزء والسخرية.

أما مينشيكوف فكان من رأي آخر:

ـ أتوسل إلى جلالتكم خصوصًا بألا تصدق كثيرًا رسائل الفيلدمارشال... ففي الحقيقة عداؤه لنا أكثر من وده، وعندما وصل مينشيكوف إلى غرودنو وجد أن الجيش قد غادرها (في ٢٤ آذارمارس ١٧٠٦)، فقد نفّذ أوغيلفي الأمر على مضض، وطبق خطة بطرس الذي كان في تلك الشهور «يعاني من حزن جهنمي» على حد تعبيره.

كان أهم ما يريده بطرس هو صيانة الجيش؛ لأن ضياعه يضاهي الهزيمة في حملة هذا العام وفي الحرب كلها، وهذا بالذّات هو سبب الحدة والحزم في التوجيهات التي بعثها إلى غرودنو:

ـ يجب التحرك من غرودنو بمنتهى السرية والخفاء على النحو التالي: تعين خفارة قوية جدًا حتى لا يتمكن أحد من السُكان أن يخرج من المدينة ولو زاحفًا، وفي تلك الأثناء يجب الاستعداد للخروج بأكبر قدر ممكن من السَرعة والسَرية.

ورغم الحاجة الماسة إلى المدفعية لا تبخل بشيء، وحافظ على الرجال قدر الإمكان (من توجيه إلى ريبنين).

ولم يتمكن كارل الثَّاني عشر من اللحاق بالجيش الرُوسي، فوصل هذا الأخير من غرودنو إلى بريست في أقل من أسبوعين، وبعد استراحة ليوم واحد، تحرك الجيش صوب كييف، وتنفس بطرس الصعداء، فقد تلقى نبأ انسحاب وصيانة الجيش، وهو في بطرسبورغ، «بفرحة تفوق الوصف» على حد تعبيره، وأسرع إلى كييف، حيث بدأ بأمر منه تعزيز قلعة بيتشورا على جناح السَّرعة، كما جرى تعزيز مدينة سمولينسك، وتشييد خط دفاعي على الحدود الغربية

وفي أيلول (سبتمبر) ١٧٠٦، فُصل من الخدمة أوغيلفي الذي كان مستمرًا في شكاواه من الجنرالات الرُوس، بل ومن مينشيكوف نفسه، وتمت تنحيته بتأدب، وكتب شافيروف معاون مدير العلاقات الخارجية إلى مينشيكوف بهذا الخصوص:

ـ رغم كل التصرفات الشائنة ينبغي إعفاء أوغيلفي من الخدمة برأفة ورقة، بل وحتى بهدية تقدم إليه كيلا يذم القيصر وسماحتكم، وهو يحب الهدايا ومستعد أن يبيع دينه من أجلها.

وجرت تسوية الخلاف بلياقة، على غير ما حصل في تنحية باتكول، كان هذا الأخير دبلوماسيًا وجنرالاً في خدمة الرُوس يقود الفيلق الرُوسي المساعد الذي ألحق بالقوات السكسونية، وكاد يدفعه إلى حافة الموت جوعًا، وتشاجر مع كل الضباط الرُوس، وأراد أن يستبدلهم بضباط أجانب (كما أراد قبل ذلك أن يستبدل الدبلوماسيين الرُوس في الخارج بالأجانب)، وفي أخر المطاف أحال الأفواج الرُوسية إلى خدمة النمسا مؤقتًا، وبتوجيه من بطرس بدأ بتفاوض مع ملك بروسيا فريدريك الأول بشأن التحالف ضد السويد، ويقال أن الملك وافق على التحالف، لكنه طلب بتنحية بعض الوزراء السكسونيين الذين لا يروقون له، أما في الواقع فإن فريدريك الأول كان يحلم بالتحالف مع السويد، وإن التحالف مع روسيا خطوة احتياطية

بالنسبة له، زد على ذلك أنه طرح هذا المطلب الاستفزازي، وأوقع باتكول المغامر في شراكه، ولم يغفر له الوجهاء السكسونيون ذلك، فزج به في السجن في كانون الأول (ديسمبر) بقرار من المجلس السكسوني السرين ،ومع أنه كان ممثلًا كامل الصلاحيات لبطرس في سكسونيا، فإن المسؤولين فيها كانوا محقين في اعتقادهم بأن القيصر لن يقدم، من أجل باتكول هذا، على فسخ التحالف الذي هو بحاجة إليه، وظلت احتياجات، ومطالب بطرس بهذا الخصوص دون جواب، واعتذر أغسطس مدعيًا الجهل بما يفعله مستشاروه في درزدن ولايبزيج، واستحسن في الوقت ذاته قرار مجلسه السري (ورد هذا الاستحسان في رسائل سرية)، وتعتبر هذه الحادثة في الواقع أحد مظاهر خيانة أغسطس في التعامل مع حليفه، وتحوله في السياسة الخارجية صوب السويد، والإشاحة عن روسيا، زد على ذلك أن كارل الثّاني عشر اقتحم بجيشه سكسونيا في آب (أغسطس) ١٧٠٦، واستولى عليها، وفرت العائلة المالكة طلبًا للنجاة، ولم يبد الجيش السكسوني أية مقاومة.

وبعث أغسطس من بولونيا دون علم بطرس مندوبين إلى الملك السويدي طلبًا للصلح، وأعرب عن استعداده لاقتسام بولونيا مع ليشينسكي، فرفض كارل هذا الاقتراح وأملى شروطه، واستسلم أغسطس، ووقعت في ٢٤ أيلول (سبتمبر) في الترانشتادت، مقر كارل قرب لايبزيج، معاهدة صار ليشينسكي بموجبها الملك الشرعي الوحيد لبولونيا، وفسخ أغسطس الأحلاف المناهضة للسويد، وسلم الأسرى والنازحين السويديين، وكذلك الفيلق الرّوسي المساعد، وتكفل بنفقات الجيش السويدي في سكسونيا، وبناء على طلب أغسطس ظل توقيع هذه المعاهدة الخيانية الشائنة في طي الكتمان، وقبل أقل من أسبوع من ذلك سلم السكسونيون باتكول إلى السويديين، فتفنن هؤلاء الأخيرون في إعدامه.

وانهالت التهاني من الدول الغربية على كارل بالنّصر الجديد، وراحت تلك الدول تدفعه إلى شن الحرب على روسيا، وأعلنت عن اعترافها بتنصيب ليشينسكي على عرش بولونيا، أما أغسطس ففي أعقاب توقيع نص

معاهدة الترانشتادت في ٦ تشرين الأول (أكتوبر) التقى ـ وكأن شيئا لم يكن ـ مع مينشيكوف في مدينة لوبلين البولونية، وطلب منه نقودًا، وكتب مينشيكوف إلى بطرس يقول:

ـ صاحب الجلالة يحن كثيرا إلى النقود، وطلبها منى متباكيًا، وادعى بأن الأملاق أحاق به حتى لم يبق لديه ما يقتات به، ولما رأيت شحته وعوزه أعطيته من نقودي ١٠٠٠٠ تالر.

كان مينشيكوف قد سمع بالمعاهدة السويدية السكسونية التي تجري الاستعدادت لتوقيعها، لكنه اعتبر تلك الأخبار كاذبة، وصدق بأغسطس، والأكثر من ذلك أنه كان يستعد معه، ومع قواته البولونية السكسونية للهجوم على جيش الجنرال السويدي ماردیفيلد، وفي ١٨ أيلول (سبتمبر) دُحر هذا الجيش بالكامل في معركة كاليش، وسقط نصف افراده في ساحة القتال، ووقع الجنرال ماردیفيلد في الأسر، وارتعدت فرائض أغسطس الذي اضطر إلى المشاركة في المعركة المظفرة من الثأر الذي كان سيأخذ به كارل، فراح يتملص ويكذب، وطلب من مينشيكوف أن يسلمه الأسرى السويديين يبادلهم بالأسرى الرُوس الموجودين عند الجانب السويدي، ولعب الملك السكسوني لعبة مزدوجة، حيث منح الضياع في بولونيا وليتوانيا إلى مينشيكوف، وبأمر منه أقيمت صلاة النصر في وارشو تكريمًا للانتصار في كاليش، لكنه في الوقت ذاته يعتذر من كارل، ويعده بدفع تعويضات نقدية.

وفي ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) اتضحت الأمور أخيرًا للسفير الرُوسي في وارشو، وردًا على سؤاله تقدم أغسطس بسلسلة فريدة من التبريرات التي نعتها الباحث المعاصر البروفسور مولتشانوف «بالنكتة البائخة»:

ـ لا يجوز لي أن أترك سكسونيا تواجه الخراب التام، ولا أرى وسيلة لتخليصها من ذلك إلا بتوقيع الصُلح مع السويديين حسب الظاهر، والتخلي عن بولونيا حتى يغادر كارل سكسونيا، فبعد مغادرته لها سأستجمع

قـواي، وأشـن الحرب من جديـد بالتعاون مـع صاحب الجلالـة القيصر، ولن أحنـث بالتحالـف مـع صاحب الجلالـة القيصر، ولـن أقوم بمـا يتعارض مع مصالحنا المشتركة.

وعرفوا في موسـكو أيضًا بخيانة أغسـطس، وكان من المؤسف طبعًا ضيـاع الحليـف الوحيد مع أنه غـير ذي بال، إلا أنهم لم يحزنـوا كثيرًا بهذا الخصوص.

واضطرت الدبلوماسـية الرُوسـية، والحـال هذه، إلى العمـل على انفراد بدون حلفاء، وفي تلك الأثناء توفي مدير العلاقات الخارجية غولوفين، حدث ذلك في صيف ١٧٠٦، بمدينة غلوخوف الأوكرانية، في الطريق إلى كييف الـتي توجه إليهـا بأمر من بطـرس وزيـره الأول، والأميرال غولوفـين، معاونه الهمام الموهوب، ورجل الدولة البارز، وقد أسـف القيصر أشـد الأسـف، وحزن من صميم القلب بسبب هذه الخسارة الفادحة في رسالة إلى ابراكسين:

(مـا كان بـودي أن أكتب إليكـم عن ذلك أبدًا، إلا أن مشـيئة العلي القدير دفعتني إلى ذلك، لأن يد المنون في غلوخوف اختطفت ـ هذا الأسبوع ـ صديقنا السَيد الأميرال، ولذا تفضلوا بتجميد المديريات التي كان يديرها (ما عدا مديرية العلاقات الخارجية) مع أموالها، وسائر حاجياتها حتى صدور مرسومنا الخاص، هذا ما يكتبه إليكم بطرس الحزين).

وعين بطـرس في منصب مديـر العلاقات الخارجية السـيد غولوفكين المقـرب إليه، وهو من أبنـاء أخواله، حاد الطبع صعب المعشـر، وثري للغاية، وفي منتهـى البخل، لكنه ملتزم، ومنفذ دقيق، وكان القيصر يقدر رفيع التقدير صفة الالتزام والتنفيذ عند معاونيه، إلى جانب روح المبادرة والجرأة في النوايا والأفعال.

أمضـى بطرس نهايـة ١٧٠٦، وبداية ١٧٠٧، في جولكفـا على مقربة من مدينـة لفـوف في أوكرانيـا الغربية، وكانـت قد وصلت إلى هنـا القوات الأساسـية للجيـش الرُوسـي، وبالإضافة إلى القيصـر جاء أقـرب أعوانه من الـوزراء والجنـرالات، وعقـد بطـرس اجتماعًـا عسـكريًا طـرح فيه على

بساط البحث خطة العمليات اللاحقة ضد كارل الذي فرغ في القتال على جبهتين وصار ـ كما هو المتوقع ـ ينشط حربه ضد روسيا، ورابط جيشه في سكسونيا وأخذ قسطًا من الراحة، وتناول ما شاء من الطعام، ونهب الأهالي دون رحمة.

لم يكن كارل وجنده السويديون قلقين بخصوص المستقبل، والحرب ضد روسيا، فهم يرون الأمور بمنظار بهيج، ويتصورونها سهلة يسيرة:

ـ الفئران تعيش طليقة في غياب القط، وحال ما يعود السويديون يفر الموسكوبيون هاربين، كما حصل في نارفا، و يختبئون في جحور الفئران.

كان بطرس مهتمًا دومًا بصيانة الجيش كي لا يداهمه العدو على حين غرة، ولا يفرض عليه معركة شاملة في ظروف غير ملائمة للروس، وكان يكرر ذلك دومًا في مراسيمه ورسائله وأوامره، وغدت أفكاره تلك أساسًا لخطة جولكفا الاستراتيجية التي أقرت في اجتماعات أنصاره ومعاونيه، وكانت تلك خطة المعركة الشاملة التي ينبغي الاستعداد لها بدقة، وشنَّها عندما تتوفر فرص أكيدة للفوز، وقد عبرت «المجلة أو يوميات بطرس الأكبر» عن جوهر هذه الخطة بدقة:

ـ عُقدت في جولكفا جلسة عامة للتشاور: هل نقاتل العدو في بولونيا أم داخل حدودنا؟.. وتقرر عدم القتال في بولونيا، لا سيما وأن الانسحاب سيكون صعبًا، فيما لو وقعت مصيبة، ولذا أجمعوا على مقاتلة العدو في أراضينا إذا اقتضى الموقف، أما في بولونيا فيجب التضييق على العدو جزءًا جزءًا في كل المكان، وعلى المعابر خصوصًا، وكذلك بالتجويع مؤونةً وعلفًا، وهذا أمر يوافق عليه الكثيرون من الوجهاء البولونيين.

ونصت الخطة على أن تعترض طريق زحف السويديين على روسيا من خلال بيلوروسيا أو أوكرانيا قلاع محصنة، وحواجز دفاعية، وغارات من الخيالة الخفيفة، ومقاومة من السُكان المحليين (إخفاء الأطعمة واتلاف احتياطيها وهلم جرا)، و يجب أن يتكلل استنزاف العدو، وإضعافه

بمعركة شاملة تُشن في أراضي روسيا في الوقت المناسب، بعد توفر القوات المسلحة اللازمة، ونُوقشت الخطة طويلًا، وأُقرت نهائيًا في نيسان (أبريل)١٧٠٧، وبدأ تنفيذها.

وعقد في لفوف في الوقت ذاته، المجلس الكبير لزعماء كتلة ساندومير من أنصار تحالف بولونيا مع روسيا، وأجرى بطرس مفاوضات معهم، وأكّد المجلس على شروط معاهدة نارفا ١٧٠٤، وقرر أن القيصر الرُوسي هو ضامن حرية بولونيا، وأطاح المجلس بالملك ليشينسكي، ونظر في المرشحين لاعتلاء العرش البولوني، وهم ثلاثة من أبناء يان سوبيسكي حاكم بولونيا الشهير في أواخر القرن السَابق: الفيلدمارشال النمساوي أوجين أمير سافوي، وزعيم الحركة التحررية في المجر فيرينتس راكوتسي، والحاكم (الجتمان) البولوني سينيافسكي.

وصارت بهذا الخصوص إشاعات حول الأمير الكسي بن بطرس، وكذلك مينشيكوف، أما بطرس نفسه، فكان يرى أن من الضروري اختيار ملك لا تسند عرشه المساعدات الأجنبية، وصرف النظر عن كل المرشحين لمختلف الأسباب، ولم يبق غير أغسطس نفسه الذي لَمّح إلى أنه لا يرفض اعتلاء العرش البولوني من جديد.

كان كارل الثَّاني عشر ـ وهو في أوج أمجاده ـ يتلقى من كل الأنحاء آيات التبجيل في مقره في الترانشتادت، التي كادت تتحول في تلك السنوات إلى العاصمة الدبلوماسية لأوربا، وراحت بريطانيا وهولندة وفرنسا تتسابق في دعوته لدخول الحرب إلى جانبها، وكانت النمسا ترتعد خوفًا منه؛ لأن الجيش السويدي يرابط في سكسونيا على مقربة منها، في حين تقاتل جيوشها في الراين، وفي إيطاليا وتحارب ضد راكوتسي في المجر، وكان احتمال اقتحام السويديين للنمسا يثير فزع بريطانيا، ويفرح بطرس و«الملك الشمس» لويس الرابع عشر، واستخدام القيصر الرُوسي من جديد المجلس الدبلوماسي في العواصم الغربية، فقد طلب ممثلوه أن تتوسط في توقيع الصُلح مع كارل، ورفض الملك طبعًا، وظل كالسابق

يستخف بهؤلاء الرُوس الضعفاء، لكن ذلك عاد بالنَفع عليهم، فقد جعله لا يفكر في التحضير الجدي للحملة على روسيا.

وتقدم بطرس بطلب إلى فريدريك الأول ملك بروسيا، وارتحل السَفير الرُوسي ماتفييف من هولندة إلى بريطانيا، وأجرى دبلوماسي آخر مفاوضات في باريس، إلا أن ملك بروسيا لاذ بالصَمت؛ لأن القوات السويدية المرابطة في سكسونيا يمكن أن تضرب ممتلكاته أيضًا، ورفض المندوب الفرنسي المركيز دي مورسي حجج زميله الرُوسي عندما أعرب هذا الأخير عن دهشته قائلا: «يدهشني أن فرنسا تقابل شروط القيصر الرُوسي ببرود، رغم وجود جيش من ٨٠ ألف شخص لديه».

وردَ الدبلوماسي الفرنسي قائلًا: «في هذا الجيش ٨٠ ألف جبان، يدحرهم ٨ آلاف سويدي».

بديهي أن جذور هذا الموقف لا تكمن فقط في «جبن» الرُوس، فإن فرنسا ـ شأن الدول الأخرى ـ تخشى من أن السويد ستهاجمها، وتلتزم جانب أعدائها بعد توقيع الصُلح مع روسيا، وواجه ماتفييف رد فعل مماثلًا في بريطانيا، ففي المفاوضات مع جون شرشل دوق مالبرو، وعده نيابة عن القيصر الرُوسي «بهدايا» ثمينة مغرية: ٢٠٠ ألف تالر، ولقب أمير روسي، وعائدات إحدى «الإمارات» (كييف أو فلاديمير أو سيبيريا)، ووسام أندري بيرفوزفاني، ويا قوتة ضخمة، وفي مقابل ذلك كان على دوق مالبرو أن يسعى إلى المساعدة في توقيع «الصُلح المشرف» بين روسيا والسويد، لكن المهمة في لندن أُخفقت هي الأخرى، فالإنجليز أيضًا يخشون أفعال الملك كارل المفاجئة.

وقد جاء مالبرو إلى كارل في الترانشتادت، وأجزل المديح له، وفهم بأنه لا موجب للتخوف من احتمال تأييده لفرنسا ضد النمسا، فعلى طاولة الملك خريطة الدولة الموسكوبية، ومع ذلك لَمح للملك المتهور بأنه إذا هب ضد الحلف الكبير فسيواجه حربًا على جبهتين، فإن روسيا تطمح إلى

الانضمام إلى هذا الحِلف (كان بطرس قد وافق فعلًا على الانضمام إلى الحلف مقابل التوسط في توقيع الصُلح مع السويد، حيث يدعمه بـ ١٢-١٥ ألف جندي في البداية، ثم بـ ٣٠ ألفا بعد توقيع الصُلح)، وفي آخر المطاف اعترفت بريطانيا بليشينسكي ملكًا لبولونيا، وغدت ضامنة لمعاهدة التراتشتادت، وكتب ماتفييف عن حصيله مهمته الفاشلة:

- الوزارة هنا أكثر حذقًا من الفرنسيين في دقائق الأمور وخوافيها، ولا نجني من الكلمات المعسولة العقيمة سوى تضييع الوقت.

وحدث الشيء ذاته في فيينا، وروما مع البابا.

كان بطرس في مساومته المفترضة من أجل الصُلح مستعدًا لإعادة ديربت إلى السويديين، وحتى نارفا «عند الاقتضاء»، لكنه منع الجميع حتى من مجرد التفكير في تسليم بطرسبورغ ومصب نيفا (منفذ البحر):

- لا يجوز حتى التفكير في تسليم هذا.

وكان كارل مصرًا على رأيه، فقد تلقى السَفير الفرنسي في استوكهولم الجواب التالي باسم الملك عن سؤاله بصدد شروط الصُلح المتوقعة مع روسيا:

(لن يتصالح الملك مع روسيا إلا بعد أن يصل إلى موسكو، ويطيح بالقيصر من عرشه، ويُقسّم دولته إلى إمارات صغيرة، و يجمع الأعيان، ويوزع عليهم أراضي الدولة ليصبحوا متصرفين فيها).

هذا ما يريده ملك السَويد لا أقل ولا أكثر، وكان قد وزّع المناصب مسبقًا على جنرالاته في الدولة الموسكوبية، وكان ينوي تعيين الجنرال شبار متصرفًا لعاصمتها، وفي آخر الأمر وقع ملك السويد في الشراك التي حكاها ونشرها بنفسه، وقد سعى بطرس بأفعاله العسكرية والدبلوماسية ليوقعه في تلك الشراك.

وأخذ بعض معاصريه يفهمون خطته آنذاك. فالبارون هنري هويسين الذي كان سفيرًا لروسيا في فيينا آنذاك، وقد خدم روسيا بنزاهة والحق يقال، كتب إلى موسكو في أيلول (سبتمبر) ١٧٠٧:

« سيتوجه السويديون إلى روسيا على مضض، ويقولون أنهم نسوا القتال كليًا بعد الهدوء الطويل الأمد، والعيش الهانئ في سكسونيا، ولذا يتوقع البعض أن ينتصر بطرس إذا دخل في معركة ضد كارل».

وتوصل السفير الفرنسي بازينفان إلى استنتاج أوضح:

«ستكون الحملة على روسيا صعبة وخطيرة؛ لأن السويديين علّموا الموسكوبيين على فن القتال، حتى غدوا خصمًا رهيبًا، زد على ذلك أن من المستحيل تقويض مثل هذا البلد الشّاسع الجبار».

واستعد بطرس للقتال الحاسم، وكان يتابع إنشاء التحصينات في موسكو تحوطًا لمجيء كارل وجيشه، ويراقب تبدل الوزراء والأمزجة في الأستانة، حيث يواصل سفيره تولستوي صراعًا سريًا مع السَفير الفرنسي شارل دي فيريول، الذي نعته العثمانيون بـ «نائب السُلطان»، وكان جُل اهتمام هذا الأخير منصبًا على دفع الإمبراطورية العثمانية للصِدام مع روسيا بأسرع ما يمكن، حتى تُنهي السويد الحرب في الشرق، وتبدأ مع فرنسا بالحرب في الغرب، وبواسطة المال والهدايا تمكن تولستوي من إحباط دسائس «نائب السُلطان»، ومع ذلك كانت الميول المعادية لروسيا هي السَائدة في أواخر عام ١٧٠٨، فقد أوعز السُلطان بالبدء بالتحضير للحرب، وجرت التحضيرات في الإمبراطورية نفسها وفي القرم، فإن خان القرم الجديد دولت جيري الذي عينته الأستانة مؤخرًا من ألد أعداء روسيا.

وتوقع بطرس أن الأحداث الحاسمة في الحرب مع كارل ستجري ذلك العام بالذات (١٧٠٨)، وقد هنأ القيصر صديقه مينشيكوف بالعام الجديد، وعبر عن أمله بالنجاح:

ـ أتوسل إلى الباري أن يوفقنا في مساعينا هذا العام.

كان الهجوم السويدي متوقعًا، وتلاحق بطرس هموم ومشاغل لا آخر لها ولا حد، فلا يتحمل أحيانًا، وينفجر فيصب جام غضبه على معاونيه، وعندما أخبروه بأن التحصينات والاستحكامات في الكريملين والأسوار القريبة منه، تُرمم وتُصلح وتُبنى استحكامات جديدة، شعر بالارتياح، لكن سلطات موسكو لم تطرد من العاصمة ـ كما أوعز بطرس في حينه ـ المقيم السويدي كنيبير كرون، الذي كان يراقب الأعمال الجارية فيها، ويبلغ ملكه بها.

واتضح أيضا أن أراء البويار الذين بحثوا هذه المسألة في جلستهم لم تسجل في المحضر، ولم يتخذ قرار بهذا الخصوص، فانهال القيصر بتقريع شديد على موسين بوشكين المسؤول عن ترميم وإنشاء الاستحكامات، وأصدر أمرًا إلى الأمير الحاكم رومودانوفسكي:

ـ تفضل وأعلن لجميع الوزراء بأن يسجلوا تحريريًا الأعمال الجليلة التي يتشاورون بشأنها، و يجب أن يذيل كل وزير القرار المتخذ بتوقيعه، وهذا شيء في منتهى الضرورة، فلا تُقبل قضية بدون ذلك؛ لأن الحماقة بهذا الخصوص يمكن أن تداهم أيا كان.

وعندما كان بطرس يتأمل في الآتي ما كان يستبعد احتمال مقتله، وبهذا الخصوص أمر بأن يسلموا (بعد وفاته) ثلاثة آلاف روبل إلى يكاترينا فاسيليفسكايا زوجته الثانية، (التي غدت فيما بعد إمبراطورة روسيا يكاترينا الأولى)، وبعد إصدار التوجيهات غادر العاصمة في ليلة ٥ على ٦ كانون الثاني (يناير)١٧٠٨، ووصل إلى دزينتسيولي، بعد أن مرّ بمدينتي سمولينسك ومينسك، وكان الجيش الروسي بقيادة منشيكوف يرابط في دزينتسيولي لقضاء فصل الشتاء، وهنا أبلغه أنباء تحرك القوات السويدية صوب غرودنو ودزينتسيولي، ولم تكن خطط كارل اللّاحقة معروفة، والمفروض أنه يمكن يتوجه إما إلى الشَّمال، صوب بطرسبورغ،

وإما إلى الشرق، صوب موسكو، لم يكن بطرس يعرف ذلك على وجه التحديد، ولم يكن يعرفه كارل نفسه، فهو لم يقرر بعد إلى أين يتوجه.

كان تحت تصرف ملك السويد ٦٣ ألف جندي، أما القيصر الروسي فلديه ١٠٠ ألف مقاتل، الأول: يتمتع بالخبرة القتالية والمبادرة الهجومية، والثاني: يتعين عليه أن يحسب الحساب لكل مناورات العدو المحتملة، التي لم تتحدد مخططاتها بعد، وفي ٢٢ كانون الثاني (يناير)، وصل بطرس إلى غرودنو، وبعث منها في اليوم ذاته أنباء وأوامر إلى جنرالاته:

ـ استلمنا الآن أربعة أسرى سويديين أجمعوا على أن السويديين عبروا أمس نهرًا على بعد اثنى عشر ميلًا من هنا، وغدا ننتظرهم هنا.

ـ العدو موجود على بعد ستة أميال من هنا.

وأوعز بطرس إلى قوات شيريميتيف أن تنسحب من مينسك إلى بوريسوف، وأمر قوات ريبنين أن تنسحب إلى فيلنو وبولوتسك، وتتلف أثناء الطريق احتياطيات الأطعمة والعلف، وبعد يوم من ذلك تلقى أنباء تفيد بأن كارل «عاد أدراجه»، (ولا أحد يعرف إلى أين)، فبعث رسلًا يحملون أوامر جديدة.

إلى شيريميتيف:

ـ توقف فورًا حسب أمرنا حيثما يصلك الأمر.

إلى ريبنين:

ـ توقف حيثما تصلك هذه الرسالة، ولا تأمر بحرق وإتلاف شيء، حتى يصلك إيعاز بذلك.

إلى تشامبيرس:

ـ حال ما تستلم هذه الرسالة توقف في مكان مناسب، ولا تتحرك إلا بعد أن يصلك أمر بذلك.

وفي اليوم التالي، الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) وصل نبأ جديد: السويديون يتوجهون إلى غرودنو من جديد، وهم على بعد أربعة أميال من القلعة، وبدّل القيصر أوامره:

ـ اعمل بهذا ، اعمل، لن أكتب لك أكثر، اعمل وإلا سأقطع رقبتك ... (إلى شيريميتيف).

ـ تفضل بالانسحاب إلى الأماكن المقررة، واعمل بما جاء في الأمر بخصوص المؤونة والعلف.

وفي ٢٦ كانون الثّاني غادر بطرس مع قواته غرودنو، وبعد ساعاتين دخل العدو المدينة، ولكن ليس بنصف قوات كارل كما هو المتوقع، بل بفصيلة من ٨٠٠ جندي فقط، عبرت دون عائق جسر نيمان الذي أمر بطرس بتفجيره، إلا أن الجنرال ميولينفيلس لم ينفذ الأمر، فأحاله القيصر إلى المحاكمة، لكنه فرّ إلى السويديين (في معركة بولتافا، وقع في الأسر بأيدي الرُوس، وأعدم رميا بالرصاص بتهمة الخيانة).

وفي ٢٨ تموز (يوليو) وصل بطرس إلى فيلنو، وكان يتصور أن كارل سيتوجه إلى بطرسبورغ، إلا أن هذا الأخير استدار نحو الشرق، ونفذ الجيش الرُوسي المنسحب الخطة التي أُقرت في جولكفا، فلم يجد السويديون في طريقهم لا قمحًا ولا ماشيةً ولا علفًا للجياد، وبسبب ذلك تباطأ زحفهم لدرجة كبيرة، فكتب بطرس بارتياح في بداية شباط (فبراير):

ـ العدو يغادر غرودنو، وخيالتنا السّائرة أمامه بثلاثة طرق تتلف كل المؤن والعلف وتثير قلقه بغاراتها، ولذا فهو ـ كما يقول الأسرى ـ يتكبد خسائر جسيمة بالأرواح والخيول، وخلال ثلاثة أسابيع لم يبتعد عن غرودنو أكثر من عشرة أميال.

واستمر الحال عند السويديين على هذا المنوال، فقد اضطروا إلى التوقف عدة أسابيع أو شهور في سمورغون تارة، وفي رادوشكوفيتش تارة ثانية، وفي أماكن أخرى، وبعد ذلك بدأ الفيضان، وشلت عمليات العدو في الواقع

شـتاءًا وربيعًا، ولذا أمضى بطرس الربيع في بطرسبورغ، ثم انشغل بإخماد الحرب الفلاحية التي تزعمها كوندراني بولافين في منطقة الدُون، وأراد أن يذهب إلى هناك بنفسه ولم يتمكن.

وفي ٢٥ حزيـران (يونيـو) ارتحـل القيصر إلى الجيش، وبعث رسـائل إلى شيريميتيف:

ـ سأصلكم قريبًا.

ـ أرجو ـ إن أمكن ـ إلا تبدأوا المعركة الرئيسة قبل وصولي.

وفي الطريـق عـرج القيصـر علـى نارفـا، حيـث احتفل بعيـد القديس الذي يرعاه، وبهذه المناسـبة أُطلقت الألعاب الناريـة على الماء، ثم توجه إلى فيليكيه لوكي، وهنا بلغه في ٥ تموز (يوليو) بنأ معركة غولوفتشينو التي نشـبت قبل يومـين من ذلك، فقد اسـتؤنفت العمليـات الحربية وجرى حادث مفاجئ لا يسر الرُوس.

أسـتأنف كارل الثانى عشر زحفه نحو الشـرق قاصدًا موسكو ـ وظل كالسـابق ـ متأثرًا بمركب العظمة, يخطط لاسقاط بطرس الذى يجب أن يحل محله ـ فى رأيه ـ ياكوف سوبيسكي، وحسب خطته هذه ينتقل شمال وشمال غربي روسـيا، بما فيهما نوفغورود وبسـكوف إلى السـويد, وتنتقـل أوكرانيا وسمولينسـك إلى ليشينسـكي، و يحكم كييف الوالي التابع له «الأمير الكبير» مازيبا, وتنتقل الأراضى الرُوسية الجنوبية الى العثمانيين وخان القرم وغيرهم من أنصار السويد، وقال كارل يخاطب ليشينسكي: ستلغى فى روسيا كل الإصلاحات, و يحل الجيش الجديد وتعود الأنظمة القديمة، وهو مصرّ على ذلك:

ـ يجب تدمير قوة موسكو التى ازدادت كثيرًا بفضل تطبيق الانضباط العسكري الأجنبي.

وكان الملك يحلم بأن روسـيا سـتعود الى الوراء, وسيتقاسمها الغالبون جزءًا جزءًا، ويزيحونها عن البلطيق (و يجب أن تُمسـح بطرسـبورغ من على

سطح الأرض)، وإنه سيغدو المحكم الأعلى فى كل ما يجري من إلبا حتى آمور، وهذا يتطلب هجومًا حازمًا ومعركة شاملة، زج كارل بجيش من ٣٥ الف جندي من العسكريين المحنكين المتفولذين، الذين أطبقت شهرتهم الأنحاء، وفي أعقاب هذا الجيش تحركت قوات ليفينهاوبت وعددها ١٦ ألفًا مع قافلة ضخمة من العربات.

وهكذا وضع على كفة الميزان وجود روسيا كدولة، وكان بطرس وقادته يعملون بحذر وبنجاح على العموم رغم الإخفاقات التي صادفتهم، وها هي قوات كارل تهاجم فيلق ريبنين فى غولوفتشينو(بيلوروسيا)في الثَّالث من تموز (يوليو) ١٧٠٨، وسقط في ساحة المعركة كثير من الجنود الرُوس البالغ عددهم ٨ آلاف، أما السويديون فكانت عملياتهم أكثر نجاحًا، وخسائرهم أقل، وانسحب ريبنين دون أن يتكبد هزيمة ماحقة، وسرعان ما عرف بطرس أن عدة أفواج روسية انسحبت باضطراب أثناء المعركة، وتركت مدافعها للسويديين، وأبدت أفواج أخرى مقاومة للعدو، لكنها خاضت القتال على طريقة القوزاق وليس الجنود، وخلافًا لما حدث لشيريميتيف لم يبد القيصر هذه المرة تسامحًا، فالعدو جاء الى روسيا بقواته الرئيسة، وكل تهاون أو خطل يمكن أن يكلف روسيا غاليًا.

وأمر القيصر بإحالة ريبنين وتشامبيرس الى المحكمة العسكرية، وهما الجنرالان المقاتلان اللذان كان حتى الأن يكِّن لهما وافر الاحترام ويأخذ برأيهما، ولم ينقذ ريبنين من الإعدام إلا البسالة التي أبداها أثناء القتال، وبناء على حكم المحكمة العسكرية خفضت رتبة الجنرال إلى جندي بسيط (وسرعان ما أبدى من جديد شجاعة بالغة فى معركة ليسنايا، فأُعيدت له رتبته ومنصبه)، أما تشامبيرس فقد نُحي من منصبه، لكنهم لم يجردوه من رتبة الجنرال لكبر سنه.

لم تكن معركة غولوفتشينو تمثل انتصارًا كبيرًا للسويديين، فقد تكبدوا همَ أيضًا خسائر جسيمة، لكنها أعمت بصيرة الملك لدرجة أكبر، أما بالنسبة للجيش الرُوسي، فقد كانت درسًا نافعًا استفاد منه

بطـرس على قدر الإمـكان، أجرى محاكمـة اسـتعراضية للجنرالين، ثم وضـع «قواعد القتال»، التي تناولت التعاون بين مختلف أصناف القوات أثناء القتال، وكذلك الصمود والتعاضد بين الجنود:

ـ من يترك موقعه، أو يشـي بغيره، أو يفر مجللًا بالعار، يُعدم، ولا تبقى له كرامة.

لم يحصـل جيش كارل الثّاني عشـر على المؤن والعلـف في الأماكن المحروقـة التي دمرهـا الرُوس بعـد أن غادروها، وتباطأ زحفـه، وصار يتوقف طويلًا في موضع واحد (فقط توقف في موغيليف مثلًا طوال شهر كامل)، وكان الملـك ينتظر وصـول ليفينهاوبت مع قافلة العربـات، وفيها الكثير مـن الأغذيـة، ثم ١٦ ألف جنـدي، لتكون عونًـا كبـيرًا، في البداية قوبل السـويديون في موغيليف «بهدوء» على حـد تعبير بطرس؛ لأنهم «يعانون مـن مجاعة شـديدة»، ورابط جيش روسـي من ٢٥ ألفًـا في غوركي شمال شرقي موغيليف.

ولم يتحمل الملك اللجوج، فقد صبره، فخرج من موغيليف، ولكن ليس صوب الشَّـمال للقاء ليفينهاوبت، بل صوب الجنوب إلى بروبويسـك، ومنها انعطف نحو الشَّمال الشرقي إلى سمولينسك، وكان بطرس يتابع بكل اهتمـام تحركات الملك المفاجئة التي صعب التكهن بها، و يجري تعديلات في منـاورات قواته، لتطابق تلك التحـركات، وينفذ بنود خطة جولكفا، فالأفواج الرُوسية تنسحب لاستدراج العدو، واستنزاف قواه.

وفي أغسـطس ظـل القيصر يصـدر أوامره وهو يتابـع كل تحركات العدو:

ـ راقبـوا تحـركات العـدو وأسـبقوه إذا توجـه إلى سمولينسـك أو إلى أوكرانيا.

ـ ابتعـد العدو عن موغيليف زهاء خمسـة أميـال، وتحركنا نحن أيضًا بالمقابل، فنحن نسـير في مقدمة العدو على مسافة ثلاثة أميال، واللّه وحده يعلم بوجهته ونواياه، والاحتمال الأكبر هو أوكرانيا.

وقد دأب كارل على ألا يخبر بنواياه حتى أقرب معاونيه، ومع ذلك حدس بطرس وقادته العسكريون بتحركات الجيش السويدي، ووجهته العامة بشكل صائب، وظل الجيش الرُوسي يتحرك أمام الجيش السويدي، ويدمر كل ما يصادفه في الطريق، وفي ٩ آب (أغسطس)، أصدر القيصر مرسومًا كرر فيه بصرامة وشدة:

- في كل مكان احرقوا المؤونة والعلف، وكذلك سنابل القمح في الحقول، وفي البيادر، وفي مستودعات القرى، ولا توفروا حتى المباني.

وأمر بطرس بتدمير الجسُور والمطاحن في كل مكان، وانتقل الأهالي إلى الغابات، ومعهم ماشيتهم، وعادت تلك الإجراءات الصَارمة والضرورية بثمارها، وبلَغوا بطرس قائلين:

- أحاط الجنود بالملك طالبين الرغيف؛ لأنهم يكادون يموتون جوعًا.

- تورم الرِّجال من الجوع والأمراض ولم يعودوا قادرين على السَير إلا بالكاد.

كان الجنود السويديون الجياع يرتدون الأسمال، و يجولون في القرى بحثًا عما يؤكل، ويفرون من الجيش، وعلى مقربة من جيش الملك، كانت أفواج الخيالة الخفيفة والفرسان الرُوس غير النظاميين، تنهال عليه بهجمات ومناوشات متواصلة وفق مرسوم القيصر:

- يجب استنزاف القوات الرئيسة بالحرق والتدمير.

وفي ٣٠ آب (أغسطس) نشب عند قرية دوبرويه صدام أكبر، فإن خمسة أفواج من «السويديين الأصليين» مُنيت بهزيمة ماحقة، على يد فصيلة روسية هاجمتها بقيادة الأمير غوليتسين، وفقد السويديون ثلاثة آلاف قتيل، بينما فقد الرُوس ٣٧٥ شخصًا، وانسحب الرُوس بعد أن كسبوا المعركة، وأدوا مهمتهم بالكامل، إلا أن كارل الذي راقب سير القتال، ونهايته الفاجعة بالنسبة للسويديين لم يتورع عن تصوير المعركة بوصفها نصرًا جديدًا له، أما بطرس فقد فرح من صميم القلب:

ـ رقصنا هذه الرقصة بأروع شكل على مرأى من كارلوس، أبي الرأس الحار.

ـ لم أشهد طوال خدمتي مثل هذه النيران والعمليات الجيدة من جنودها، ولم أسمع عنها (فليوفقنا اللّه في المستقبل مثلما وفقنا الآن)، ولم ير الملك السويدي نفسه في هذه الحرب مثل ما رأه الآن.

ورغم كبرياء الملك كارل راح يقتلع شعره مهتاجًا، ويضرب خديه بقبضتيه، بهذه الصورة تعكر مزاج القائد «المظفر»، كيف لا؟ والهزيمة ماحقة، ولم ينقذ قواته من الهلاك التام إلا المستنقعات، وأخذ كارل يفكر في نتيجة الحملة على روسيا، ويتشاور مع جنرالاته، وفي بداية أيلول (سبتمبر) استدعاهم، وسألهم عن وجهة الجيش لاحقًا، وقال هيلينكروك ـ مدير عملياته ـ بحق: لكي يستطيع الجنرالات أن يجيبوا على هذا السؤال، ينبغي لهم أن يعرفوا ما ينوي الملك القيام به.

وجاء رد الملك بشكل لابد وإن يحير أعوانه ومستشاريه:

ـ ليست عندي أية نوايا.

لم يتعب الملك نفسه في وضع خطة للحرب ومناقشتها مع الجنرالات، فقد كان حتى الآن واثقًا من أن الحملة على روسيا ودحر قواتها عملية بسيطة سهلة كما حدث، مثلًا، في سكسونيا، إلا أن العثرات والصعوبات بدأت، فتفضل كارل أخيرًا على الجنرالات الذين كانوا ينفذون أوامره دومًا بصورة عمياء، فسألهم عن آرائهم، وبعد جدل طويل قرر العسكريون المشاركون في الاجتماع التوجه إلى أوكرانيا، وليس إلى موسكو، وأوضح ماتفييف من لاهاي جيدًا مغزى هذا القرار الذي يعني انعطافًا شديدًا في تحركات الجيش السويدي، فقد استطاع هناك أن يكشف «السّر» السَويدي:

ـ أخبرني أصدقاء عن سر من أسرار الوزير السويدي هنا أن الملك السويدي عندما رأى حذر قوات القيصر، واستحالة الوصول الى سمولينسك وشحة المؤن

والعلف، قرر أن يتوجه إلى أوكرانيا؛ لأن هذا البلد مكتظ بالسُكان، وكثير الخيرات، وليس فيه أية قلاع كبيرة دائمة ذات حاميات قوية، هذا أولًا، وثانيًا: يأمل في جمع رجال كثيرين من الشعب القوزاقي الطليق، يقودهم بطريق مباشر مأمون إلى موسكو، ثالثًا: يسهل هناك الاتصال بخان القرم، ودعوته إلى التحالف كذلك مع البولونيين الذين يلتزمون جانب ليشينسكي، رابعًا وأخيرًا: توجد إمكانية لإرسال القوزاق إلى موسكو لإثارة سخط الشعب.

وهكذا نرى لدى كارل حسابات ومخططات كثيرة، لكنها جميعًا خيالية لا تستند إلى الواقع، فهو كالسَابق لا يرى ولا يفهم شيئًا، في حين تتدهور حالة قواته، وكل تصرفاته تؤدي إلى تدهورها.

في ١٠ أيلول (سبتمبر) هاجم فوج من الفرسان السويديين الخيالة الخفيفة الرُوسية عند قرية رايفكي، وكان الفوج بقيادة الملك، وقد مُني بهزيمة كبيرة جديدة، قتل حصان الملك وهو على ظهره، وكاد كارل يقع في الأسر، وحدث ذلك كله على مرأى من بطرس الذي شارك في المعركة، وبعد الإخفاق الجديد قرر الملك ألا ينتظر وصول ليفينهاوبت المسرع إليه من ريغا، وعجّل في التوجه إلى الجنوب، وساعدت هذه الخطوة الخاطلة الحمقاء الرُوس في إحراز نصر آخر، وهو هذه المرة أكبر وأخطر بكثير، حتى أن بطرس نعته بأنه «أساس» الانتصار في معركة بولتافا.

عندما تلقى القيصر نبأ نية كارل ومسيرة ليفينهاوبت عقد اجتماعًا لرجاله، ووفقًا لقرار الاجتماع يتعين على القوات الرئيسة للجيش الرُوسي بقيادة شيريميتيف أن تتوجه إلى أوكرانيا «لمرافقة» كارل، في حين توجهت مجموعة خاطفة من ١١٠٥ ألف شخص بقيادة بطرس للقاء ليفينهاوبت الذي يقود قوات من ١٦ ألف جندي مع قافلة من الأغذية والعلف.

وفي صباح ٢٨ أيلول (سبتمبر) داهمه بطرس عند قرية ليسنايا، وكان ظهور المجموعة الخاطفة مفاجأة تامة للسويديين، فالمنطقة كلها غابات

كثيفة ومستنقعات وعرة، واستمرت المعركة عدة ساعات، وألمَّ التعب بجنود الطرفين حتى هووا على الأرض، (السويديون جنب عرباتهم والرُوس في مواقع القتال)، واستراحوا أمدًا طويلًا على بعد نصف إطلاقة مدفع عن بعضهم البعض، ثم استؤنف القتال، وفي آخره وصلت الخيالة الرُوسية بقيادة بور، وحسمت الموقف لصالح الرُوس، ومُني السويديون بهزيمة ماحقة، ولم ينقذ فلولهم التي فرت في الظلام إلا العاصفة الشديدة، وذلك الليل البهيم، وترك ليفيناوبت في ساحة المعركة ثمانية آلاف قتيل، وكل المدفعية تقريبًا، وكل العربات التي كانت حمولتها ضرورية جدًا لجيش كارل الجائع، وعرف الملك بالهزيمة الماحقة لأحد أفضل جنرالاته، في الأول من تشرين الأول (أكتوبر)، وفي ١٢ منه جاءه هذا الجنرال بـ ٦٠٧ آلاف من الجنود الجياع الذين يرتدون الأسمال، وهذا كل ما تبقى من أفراد قواته الـ ١٦ ألفًا.

عندما سمع الملك بهذا الخبر لأول مرة لم ينم الليل، واعتراه الحزن والصمت، أما الآن، بعد حديث الجنرال المغلوب، فقد بعث إلى استوكهولم تقريرًا عن انتصار سويدي جديد، وواصل زحفه على أوكرانيا، صحيح أنه أخذ من ذلك الوقت يشكك في انتصاره النهائي، لكنه أخفى مشاعره بكل عناية، واحتجب عن الجميع وراء ستارة من الصمت والرياء والتقارير، بشأن الانتصارات المزعومة.

لقد عزز النصر في معركة ليسنايا الثقة بالجيش الرُوسي، وقد تحدث عن ذلك بطرس الذي كسب المعركة:

يمكن أن ينعت هذا النصر بالنصر الأول؛ لأنه لم يحدث من قبل نصر مثله على قوات نظامية، زد على ذلك أننا واجهنا العدو بعدد من الرجال أقل مما لديه، تلك في الحقيقة نتيجة مجهود روسيا الموفق، لا سيما وإن تلك هي التجربة الأولى للجنود، ولذا رفعت معنويات الرجال طبعا، وهذا النصر هو أساس معركة بولتافا، من حيث رفع معنويات الرجال، ومن حيث تجربة الجنود الأولى، ففي الشهر التَّاسع ولدت السَعادة.

وترك خبر الانتصار المؤزر انطباعًا جيدًا في روسيا، وخارجها، وشعر بطرس بالارتياح، فقد تحقق نصر بعدد أقل من الرجال على قوات السويديين المتمرسة، وغدا جيش كارل الرئيس منقطعًا عن قواعد المؤخرة التموينية، فوقع في تطويق استراتيجي، وفي معركة ليسنايا تجلت مواهب بطرس كقائد عسكري مجدد فذ، فقد نظم المجموعة الخاطفة من جنود مشاة ركبوا ظهور الجياد، واختار مكانًا متقاطعًا محجوبًا، وليس حقلًا مكشوفًا ليكون ساحة للمعركة، وصفّ عساكره ليس في نسق واحد، كما هي العادة، بل في نسقين.

وفي أعقاب معركة ليسنايا، في تشرين الأول (أكتوبر)، مُني السويديون بهزيمة أخرى، فإن فيلق لوبيكير المكون من ١٣ ألف شخص اقترب من بطرسبورغ من جهة فنلندة، فهزمه الأميرال ابراكسين والحامية، وفقد الفيلق ثلث أفراده، وستة آلاف جواد، وبعد هذه الهزيمة لم يحاول العدو ولا مرة أن يقترب من «فردوس» بطرس، وتكريمًا للنصر سكت بأمر من القيصر ميدالية، على أحد جانبيها صورة المنتصر، وكتابة: «الأميرال ابراكسين من أتباع صاحب الجلالة»، وعلى الجانب الثاني: سفن اصطفت في صف واحد، وتحيط بها الكلمات التالية: «وهو يحافظ عليها ولا ينام، الموت أفضل من الخيانة، ١٧٠٨».

وعندما كان بطرس في سمولينسك، حيث استقبلوه بإطلاق المدافع والبنادق، وهو في هالة من الانتصارات والأمجاد، تلقى ضربة شديدة، إذ أخبروه بخيانة حاكم (جتمان) أوكرانيا مازيبا، كان هذا الأخير يحكم في أوكرانيا عشرين عامًا، ويحظى بثقة القيصر التامة، ولم تلتف موسكو إلى تقارير خصومه السياسيين، وحاسدية والمتذمرين منه، وهذا ما حدث هذه المرة أيضًا، فقد أفاد كبير قضاة أوكرانيا الشّيخ كوتشوبي الذي اختطف مازيبا ابنته واغتصبها:

ـ الحاكم إيفان مازيبا يريد أن يخون القيصر العظيم، وينضم إلى البولونيين، ويلحق ضررًا جسيمًا بقيصر موسكو، ويستولى على أوكرانيا ومدن القيصر.

وأفاد بالشيء ذاته المقدم المتقاعد ايسكرا من مدينة بولتافا، إلا أن الرجلين أعتقلا وسُلما إلى مازيبا، وفي ١٤ تموز (يوليو) ١٧٠٨، قُطعت رقبتاهما، أما الحاكم مازيبا، فكان من ثمانينات القرن السَابع عشر يحلم بفصل أوكرانيا عن روسيا، وإعادتها إلى السُلطات البولونية، وقد تصور الأن أن الملك السويدي وصنيعته ليشينسكي سيساعدانه في تنفيذ خطته القديمة، فوعد الملك بتوفير مواقع شتوية للقوات السويدية مع الأغذية والعلف، ووعد ليشينسكي بتسليمه مناطق أوكرانيا على الضفة اليُسرى من الدنيبر، وفي عام ١٧٠٧، وقّع معهما معاهدة بهذه الشروط، لكنه كسر المعاهدة، وتحايل وناور، لكن الخيانة افتضحت، فصعق لها بطرس كالرعد في وضح النهار، واتخذ إجراءات عاجلة، فقد أسرع مينشيكوف بقواته إلى باتورين مقر الحاكم مازيبا، الذي انتقل إلى صف السويديين، ومن جهة أخرى تحرك مازيبا مع الأفواج السويدية، وكانت للاستعجال أسبابه الواضحة، ففي عاصمة مازيبا احتياطيات هائلة من الأغذية والبارود وذخيرة المدفعية، وسبق مينشيكوف العدو، ونقل من باتورين كل ما أمكن نقله، وأحرق الباقي، وهدم القلعة.

وكانت تلك ضربة قاسية بالنسبة للحاكم مازيبا، ولكنها ليست الضربة الوحيدة، ولا الرئيسة، فقد أعقبتها ضربات، وكانت البداية من رفض القوزاق الأوكرانيين الالتحاق به، فقد جاء إلى معسكر كارل وليس معه عدد كبير من المحاربين القوزاق كما وعد، وكما كان الملك يأمل فيه، كل ما كان معه ألفان أو ثلاثة آلاف رجل لا يؤبه بهم، وحتى هؤلاء ما كانوا يعرفون أهدافه الحقيقية، فقد ظنوا أنهم وصلوا إلى جيش شيريميتيف، وعندما اتضحت الأمور أخذوا يغادرون المعسكر السويدي سرًا.

ثم إن أوكرانيا علمت من مراسيم بطرس أن مازيبا يريد أن يعيد الوطن الأم إلى الإقطاعيين البولونيين، فاندلعت الحرب الشعبية ضد أنصار مازيبا والسويديين.

وفي ٦ تشـــرين الثانـــي (نوفمبـــر) انتخـــب ممثلـوا أوكرانيـا سكوروبادسـكي حاكمًـا جديدًا لهم بـدلًا من مازيبا الـذي أطاحوا به، وجرى هنا إعدام رمزي للخائن, فقد «شـنق» الجلاد صورته، وحطّم شـعاره، وسـحقه بقدميه، وفعلوا الشيء ذاته بشـهادة وسام اندري بيرفوزفاني الذي تسلمه مازيبا في حينه.

ولم يكتف بطرس بذلك، بل كتب إلى سـتيفان يافورسـكي سادن الكرسـي البطريركـي في موسـكو: «سماحـة أبينـا المحـترم، أرجو أن تصدر لعنة على ذاك (مازيبا- ملاحظة المؤلف) بسـبب تصرفه هذا، وتعلنها على الملأ في الكاتدرائية».

وفي ١٢ تشـرين الثانـي (نوفمـبر) أعلـن يافورسـكي في كاتدرائيـة أوسبينسكي في كريملين موسـكو، أمام جميع البويار، وكبار رجال الدِّين اللعنة على الخائن ثلاث مرات:

- لعنـة اللّه على الخائن مازيبا، لجريمته بحق المسـيح، وخيانته للقيصر العظيم.

وأشاحت أوكرانيا بوجهها عن حاكمها السابق، الذي لعنته الكنيسة، وأُعدم غيابيا، ولم تكن ترغب في رؤية سـيده الجديد الملك السـويدي في أراضيها.

وظـل كارل يعيـش في جـو من الأوهـام، وخـداع النفـس، ويـوحي إلى جنرالاته قائلًا:

- يجب أن نقتحم طالما الحظ يبتسم لنا.

لقـد تصرف على هـذا النحو قبل وبعد معركة ليسـنايا، ويقول تارلي المـؤرخ السـوفييتي الموهب، مؤلف الدراسـات عن نابليون وفرنسـا وروسـيا، ورجالاتهـا البارزيـن، وقضاياها الهامة: «صار كارل مـن ذلك الحين يعيش حياة مزدوجة لأنه يستأسـد أمام الآخرين، ويتشـدق باحلال موسـكو...»، وأخذ يبعث إلى اسـتوكهولم أوامـر بتجنيد وجبات جديـدة، وراحوا هناك

يعبئون الجميع، حتى الشيوخ الطاعنين في السن، والصبية الذين لا يستطيعون رفع البندقية من الأرض.

وبعد معركة ليسنايا، أخذ الخوف في أوربا من السويد، وملكها المهووس يزول، و يحل محله الخوف من قدرة روسيا المتعاطفة بقيادة قيصر نشيط وشجاع وحكيم كما بدأوا يعتبرونه هناك.

وتجلى تغير الموقف، فيما تجلى، في عدم رغبة بطرس في انضمام روسيا إلى الحلف الكبير بعد أن كان راغبًا فيه، ففي خريف ١٧٠٨، أعلن عن ذلك على رؤوس الأشهاد ماتفييف سفيره في هولندة، وفي مطلع الشتاء أبلغ ماتفييف القيصر بأن ملك الدانمرك فريدريك الرابع ينوي التفاوض مع حاكم سكسونيا أغسطس الثَّاني بصدد استئناف العمليات الحربية ضد السويد، وقد بدأت المفاوضات بالفعل، وفيما بعد اشترك فيها ملك بروسيا، وبذلك اشتدت عزلة السويد في ميدان السياسة الخارجية، وسارت الأمور صوب بعث حلف الشمال، ذلك هو تأثير ما حصل في معركة ليسنايا.

ظل كارل الثاني عشر يجوب أوكرانيا، ويلاحقه، هو وجيشه الذي يذوب ويتضَاءَل على مرأى من الجميع، كابوس الصقيع القارس، والمجاعة المتفشية بين الجنود، وشحة العلف للخيول، وقلة الذخيرة، وعداء الأهالي، وانعدام الحلفاء المخلصين، وفي بولونيا التي كان يعول على مساعدتها لا يعير الكثيرون سلطة الملك ليشينسكي اهتمامًا، فإن نصف بولونيا، كما يقول البولونيون أنفسهم، لا يعترف به، والنصف الثاني لا يخضع له، وفي شمال البلاد فقط تسيطر أفواج ليشينسكي والقوات السويدية بقيادة كراساو على قسم غير كبير من الأراضي، وفي سائر أراضي البلاد يعود الأمر والنهي إلى جيش سينيافسكي الحاكم باسم الملك، وجيش الحاكم الليتواني اوغينسكي اللذين دحرا قوات صنيعة السويد، وحظيا بمساعدة الأفواج الرُوسية، وكانت جيوش غوليتسين تحمي كييف، ومناطق أوكرانيا الواقعة على الضفة اليمنى من الدنيبر.

وراح كارل يستدعي إلى أوكرانيا باستمرار كراسا وليشينسكي، ويحدث جنرالاته عن حملة القوات الكبرى من بولونيا، ويكتب إلى هناك عن أحواله الممتازة:

ـ أنا وجيشي كله في أحسن حال، دحرنا العدو، وأزحناه، وجعلناه يطلق ساقيه للريح في كل المناوشات التي حدثت له معنا.

كان جميع المحيطين بالملك وهو نفسه، يتظاهرون بأنهم يصدقون ما يقولونه لبعضهم البعض عن الأحوال الجيدة، في حين يتدهور الوضع من سيء إلى أسوأ، صحيح أن بارقة من الأمل لاحت ذات مرة، فإن غوردييينكو قائد قوزاق زابوروجيه حذا حذو مازيبا، وأخذ يهاجم فصائل الرُوس المقاتلة، وجاء جواب بطرس حازمًا شديدًا، ففي ربيع ١٧٠٩، اقتحمت قواته منطقة زابوروجية ودمرتها عن آخرها، والتحق قوزاق غوردييينكو بالملك كارل، إلا أن هذا «المكسب» لم يكن ذا شأن، وفهم هذه الحقيقة مازيبا الذي راح يبحث محمومًا عن مخرج من الورطة، فتارة يقترح على كارل القيام بحملة على الشرق ـ مثل الإسكندر المقدوني ـ إلى آسيا (أي إلى أعماق روسيا)، وتارة يقترح عليه أن يتحالف مع بولافين (في تلك الأثناء كانت الحرب الفلاحية قائمة في جنوب روسيا، في منطقة الدُون)، وتارة يبعث صديقية المقدمين أبوستول، وغالاغان إلى بطرس يقترح عليه أن يسلمه الملك السويدي، وكبار قادته العسكريين.

وكان كارل الحائر هو الآخر يجوب أوكرانيا المعادية له بحثًا عن الطعام والمأوى لجنوده، وليس أوكرانيا وحدها، بل وعواصم الدّول الحليفة طلبًا للمساعدة (بالمال إن لم يكن بالرجال)، ويحاول أن يقيم علاقات مع الأستانة والقرم، إلا أن أولئك فضّلوا الانتظار، فهم خائفون، كانت المدائن والقلاع الأوكرانية التي يصادفها السويديون في طريقهم تقاوم ببطولة، وتحلق بهم خسائر ليست قليلة، فالأهالي الأوكرانيون، والفصائل المقاتلة الرُوسية حرموهم ليس فقط من لأغذية، بل ومن الرَاحة والمأوى، ذات مرة (في شباط ـ فبراير ١٧٠٩)، كان الملك وقواته في كولوماك، في حدود أوكرانيا

الدَّاخلة ضمن الدولة الرُوسية، وكان مازيبا يسير على ظهر حصان جنبه، وينزلف إليه، ويتحدث عن انتصارات السويديين الحربية الوهمية، ثم أضاف باللاتينية إن صاحب الجلالة موجود على بعد ثمانية أميال لا غير عن آسيا، وفي الحال طلب الملك السويدي، المرشح لدور الإسكندر المقدوني، من دي هيلينكروك نفسه أن يستسفر عن الطرق المؤدية إلى آسيا، وأجابه ذاك أن آسيا لا تزال بعيدة، فلم يوافقه كارل:

ـ لكن مازيبا قال لي إن الحدود ليست بعيدة من هنا، يجب أن نذهب إلى هناك لنقول إننا كنا في آسيا أيضا.

ـ يبدو أنكم تمزحون يا صاحب الجلالة، فأنتم بالطبع لا تفكرون في هذه الأمور بجد.

ـ أنا لا أمزح إطلاقًا، أمض في الحال واستفسر عن الطرق، ومضى هيلينكروك، ولكن ليس إلى آسيا، بل إلى مازيبا، ولامه قائلًا:

ـ يمكنك يا صاحب المعالي أن ترى من هنا خطر التنكيت مع ملكنا على هذا النحو، فهو يحب الشهرة أكثر من أي شيء في الوجود، ويسهل استدارجه للسير أبعد من اللزوم.

واستمرت الفصائل الرُوسية والأنصار الأوكرانيون في مهاجمة الجيش السويدي، وظلت الأغذية شحيحة كالسَّابق، وتضاءلت صفوف السويديين بسبب ذلك كله وبسبب الأمراض، إلا أن الشتاء انتهى أخيرًا، وبدأت فيوض الربيع، ومع الربيع تنتعش الآمال، كما هو معروف.

في الأول من نيسان (أبريل)، وصل كارل مع جيشه إلى بولتافا، وعزم على اقتحامها، وأوحى له مازيبا من جديد، أن احتلال بولتافا يجعل أوكرانيا تحت سلطته، ومن بولتافا تمتد الطرق إلى الجنوب، إلى القرم، في حين كان الملك يجري مفاوضات مع خان القرم والسُلطان العثماني بصدد العمليات المشتركة ضد روسيا.

وظل بطرس يتابع تصرفات الأستانة، حيث كان السفير تولستوي يبذل المستحيل كالسَّابق، ليحول دون تطور الأحداث غير المرغوب فيه بالنسبة لروسيا، ولم ينس القيصر بناء الأسطول في فورونيج، فقد استمر بناؤه هناك دون قيد أو شرط، امضى بطرس كانون الثاني (يناير) ونصف شباط (فبراير)١٧٠٩، في سومي (أوكرانيا)، وبالإضافة إلى الأشغال المرتبطة بطباعة الكتب، وإجراء الإصلاح الإداري في الألوية، وإخماد الانتفاضات الشعبية في عدد من مناطق البلاد كان مهتما بالحيلولة دون وصول جيش كارل الى ما وراء الدنيبر، حيث يمكنه أن يلتقي بقوات كراسا وليشينسكي، وبعد ذلك، في شباط، ارتحل إلى فورونيج، وأشرف على بناء السُفن طوال شهرين، وعلم الأسطوات على جلفطتها، وعلى صنع الأصماغ الجيدة، وعندما عرف بشحه الاحتياطيات توجه إلى مصنع ايفانوفو، وأمضى أسبوعين مع الأسطوات، في صنع المراسي والبراغي والقنابل والعبوات ومدافع المورتر وغيرها، وبعد العمل في حوض بناء السُفن، أبحر بطرس على رأس أسطول كبير (٢٤١ سفينة، منها ٢٩ سفينة حربية كبيرة) في الدون إلى آزوف، وسرعان ما وصل إلى البلاط العثماني نبأ مجيء هذا الأسطول، فذابت نوايا السُلطان في شن الحرب على روسيا كزبد البحر...

في تلك الأثناء كان الكونت بيبر، الوزير الأول للملك كارل الذي رافقه في حملته، يتحدث، في اليوم التَّالي لوصول الجيش السويدي إلى بولتافا، مع ضابط سويدي من الذين وقعوا في الأسر بأيدي الرُوس، كان الضابط قد جلب رسالة من غولوفكين تضمنت اقتراحًا بتبادل الأسرى، والشروع بمفاوضات الصُلح، ورد الكونت بأن السويد مستعدة للنظر في توقيع صلح مربح، وفي رسالة ثانية اقترح غولوفكين تعيين ممثلين لأجل التفاوض، وتتلخص شروط روسيا في استلام جزء من كاريليا، واينغريا مع بطرسبورغ، ودفع تعويضات نقدية إلى السويد، كان اقتراح بطرس السلمي يوفر فرصة جيدة للملك كي يتخلص من الورطة، وينقذ جيشه، لكن هذا الأخير رفض الاقتراح، وتسلم القيصر ردًا مفعمًا بالغطرسة الهوجاء:

ـ صاحب الجلالة ملك السويد لا يرفض الصُلح المربح، والتعويضات العادلة عن الأضرار التي تكبدها جلالته، إلا أن أي شخص غير متحيز يدرك بسهولة أن الشروط المطروحة الآن يمكن في الأغلب ان تؤجج لهيب الحرب أكثر مما تساعد على إطفائه.

كانت هذه الاتصالات غير المفيدة قد عادت بالفائدة على روسيا، لأنها كشفت عن نواياها السَلمية، وأثرت على موقف الأستانة التي تخلت عن مخططاتها الحربية عندما سمعت بها، ثم أنها شلت نشاط بلدان أوربا الغربية، التي كانت على العموم تلتزم بمواقف العداء للروس، فرأت الأن في محاولات بطرس لإنهاء الحرب بالصُلح دليلًا على ضعف روسيا، أما كارل فقد ظل كالسَابق يركض وراء سراب النَصر النهائي، وعندما حاول الجنرالات إقناعه بترك بولتافا، والانسحاب إلى بولونيا، رد عليهم قائلا:

ـ سأظل هنا حتى لو بعث الخالق ملاكه من السماء يأمرني بالانسحاب من بولتافا.

كان الملك يقود الجيش إلى الكارثة بتعنت وعناد، كالسائر في الأحلام، وفي حديث مع هيلينكروك أصرَ على حصار بولتافا:

ـ جهز كل شيء للهجوم على بولتافا.

ـ هل تنوون جلالتكم محاصرة المدينة؟

ـ نعم، ستشرف أنت على الحصار، وتخبرنا باليوم الذي نستولي فيه على القلعة.

ـ لكن الجيش لا يمتلك كل مستلزمات الحصار.

ـ لدينا مادة كافية للاستيلاء على قلعة تافهة مثل بولتافا.

ـ القلعة ليست متينة، لكن الحاملة تضم ٤ آلاف شخص ما عدا القوزاق.

ـ عندما يرى الرُوس أننا جادون في الهجوم يستسلمون من أول طلقة تصوب إلى المدينة.

الغشاوة التي أعمت بصيرة الملك، منعته هذه المرة أيضًا من الإنصات إلى صوت العقل، لقد حاول هيلينكروك أن يثبت له بأن الرُوس داخل القلعة سيدافعون عنها بشجاعة حتى الرمق الأخير، أما السويديون الذين تعوزهم المدافع والذخيرة فسيتكبدون خسائر جسيمة، لكن الملك كان يجيب:

ـ ولذلك بالذات يجب أن نحقق ما هو خارق للعادة، فهذا يشرفنا، ويمنحنا الشهرة والأمجاد.

حاصر السويديون بولتافا ذات الاستحكامات الركيكة طوال ثلاثة شهور، وكان كيلين يعمل بموجب التوجيه الذي بعثه بطرس إلى قومندانات كل القلاع في أوكرانيا بشأن المقاومة «حتى الرمق الأخير»، وصد حماة بولتافا كل الهجمات، وقاموا هم أيضًا بهجمات خاطفة، فالحقوا ضررًا بمحاصريهم، وتكبدوا هم أنفسهم خسائر أيضا، وأدرك بطرس رأسًا الأهمية الاستراتيجية لقلعة بولتافا، التي يسعى كارل إلى السيطرة عليها بمثل هذه المثابرة والعناد، وفي رسالة إلى مينشيكوف الذي رابط مع قواته على مسافة غير بعيدة، أمر بطرس بنجدة حماة القلعة المحاصرة، وفي ٧ آيار (مايو) شن مينشيكوف هجومًا مباغتًا على أوبوشنيا، التي يرابط فيها السويديون، ودمرهم، فأسرع كارل إلى هناك، إلا أن الرُوس انسحبوا بهدوء وانتظام إلى الضفة الثانية من نهر فورسكلا، وفي ليلة ١٤ على ١٥ آيار، وصلت بولتافا عبر المستنقعات فصيلة من ٩٠٠ جندي، مزودة بكميات من البارود والرصاص.

وفي ٤ حزيران (يونيو) وصل بطرس إلى بولتافا، وكان الجيش السويدي كله مرابطًا حولها، وبعد ثلاثة أيام بلغ أبراكسين بقراره بعد أن قيم الموقف، وتناسب القوى (فقد وصلت القوات الرُوسية إلى هناك أيضا):

ـ اقتربنا كثيرًا من جيراننا، وفي هذا الشهر ستكون لنا بإذن الله القضية الرئيسية معهم.

في معركة بولتافا، وجد الجيش السويدي نفسه في طوق استراتيجي، وقد استنزفته كثيرًا الهزائم والحصارات والمسيرات والمجاعة، أما الجيش الرُوسي فعلى العكس، حيث غدا أقوى بكثير وأقدر على القتال، وفي ٢٠ آيار (مايو)، عبر الجيش نهر فورسكلا، وبدأ في الحال إنشاء الاستحكامات الميدانية في المواقع التي أُختيرت للمعركة الشاملة المرتقبة، وكما هو الحال في موقعة ليسنايا رابطت القوات الرُوسية في أماكن محجوبة، واستند جناحاها إلى الغابات، وفي الخلف الضفة العالية، وقد مدت جسور على النهر، وفي المقدمة ينبسط سهل مكشوف، ينتظر أن يهجم السويديون من جهته، وأعدت هناك ستة خنادق قبع فيها الرماة.

وفي ٢٥ حزيران (يونيو)، عقد بطرس اجتماعًا للعسكريين، وضع خطة المعركة، وتفقد العساكر، ووزع الجنرالات على الفرق، وعهد بالفرسان إلى مينشيكوف، كما عهد بالمدفعية إلى بروس، وجاء في «تاريخ الحرب السويدية»: « أن الفيلدمارشال، والجنرالات توسلوا إلى جلالة القيصر ألا يشترك في القتال، فتفضل قائلًا بألا يحدثوه في هذا الموضوع بعد الأن»، وهكذا فإن مشاركة بطرس شخصيًا في القتال أمر مفروغ منه بالنسبة له.

وفي اليوم التالي أبلغوه بأن ضابط صف فرَ إلى السويديين من فوج سيميونوفسكي، وأبلغ الخائن العدو في أغلب الظن بنقاط الضعف في مواقع الرُوس، ومنها أحد الأفواج المكون من المجندين الجدد ، الذين لم يكتسبوا بعد خبرة في القتال، وأمر بطرس في الحال بأن يخلعوا بزاتهم ليرتديها جنود فوج نوفغورود المحاربون الشُجعان المحنكون، وزار مرارًا وتكرارًا مواقع الأفواج، واتخذ آخر الإجراءات، وشجع المحاربين، وسمع ضباط أفواج الحرس دعوته التالية:

ـ تعرفون أن ملكهم المتغطرس الثَّاقب الذهن وزع المنازل في موسكو غيابيًا على قواته، وعين جنراله شبار متصرفًا لموسكو، وقرر تقسيم وطننا الحبيب إلى إمارات صغيرة، وإبادته نهائيًا بإدخال الزندقة إليه، فهل

نترك هذه الإهانات وهذا الاحتقار دون أن نأخذ بالثأر؟

ونيابة عن الجميع أجاب الليفتينانت جنرال الأمير غوليتسين، مستشهدًا بمعركة ليسنايا:

ـ لقد رأيت عملنا وإخلاصنا عندما صمدنا في النار يومًا كاملًا، ولم تضطرب صفوفنا ولم نتنازل للعدو عن شبر من أراضينا، وأطلقنا النيران أربع مرات، وملأنا أكياسنا وجيوبنا بالرصاص أربع مرات؛ أما الآن فالقوات نفس القوات، ونحن عبيدك مثلما كنا عليه، ونأمل أن نحقق الآن نفس المآثرة التي حققناها آنذاك.

وتلقى كارل قبل عدة أيام من المعركة أنباء تفيد، بأن الأستانة لا تنوي شن الحرب على روسيا، وأن قوات كراساو وليشينسكي لا تستطيع أن تأتي لنجدته، لأن خيالة الجنرال غوليتسين تقلقها باستمرار، زد على ذلك أن خيالة غير نظامية من ٤٠ ألف فارس قادمة لنجدة القيصر الرُوسي، كما أفاد الضابط الهارب، ومع ذلك قرر الملك بدء المعركة الشَّاملة في ٢٦ حزيران (يونيو)، وقبل ذلك ببضعة أيام أثناء استطلاع الموقف في مواضع الخيالة، ارتطم الملك بعدد من القوزاق الرُوس حول موقد، قفز كارل من حصانه بخفة، وأطلق النار على أحد القوزاق، لكنه أصيب برصاصة في ساقه، انتشل طبيب المعسكر الرصاصة، لكن كارل عجز عن المشي.

وفي نفس اليوم المذكور، السَّادس والعشرين من حزيران، حملوا كارل على النقالة، في وضعية أقرب إلى الرقاد، وراح يتفقد صفوف جيشه، وألقى خطبة في الجنود والضباط دعى فيها إلى فتح روسيا، والاستيلاء على ثرواتها، كما دعى الضباط لتناول طعام الغذاء في خيمة القيصر الرُوسي:

ـ فقد أعد لنا مأكولات كثارا، اذهبوا غدًا إلى هناك تحدوكم الأمجاد.

وقبيل ذلك اتفق الفيلدمارشالان شيريميتيف ورينشيلد بكلمة شرف على بدء المعركة، في ٢٩ حزيران (يونيو)، «وحتى ذلك الحين لن تجري

أية جولات وغارات مفاجئة من كلا الجيشين»، إلا أن الملك داس على هذا الاتفاق، فهو في عجلة كما أعلن، لأن نبأ الخيالة من ٤٠ ألف فارس أثاره، والأهم كما يتصور دون شك، أن شمس النصر والمجد التليد ستشرق كلما عجّل في بدء القتال.

وخلافا للملك السويدي تناول بطرس في خطبته أمام الجنود أمرًا آخر، هو الدفاع عن الوطن، وحماية «شعب عموم روسيا».

- أيها المحاربون، حانت الساعة التي يتقرر فيها مصير الوطن، فلا تفكروا بأنكم تحاربون من أجل بطرس، إنكم تحاربون الدولة التي عُهد بها إلى بطرس، من أجل شعبكم ووطنكم... ولا ترتبكوا لزعم العدو بأنه قوي لا يقهر، فقد فضحتم أكاذيبه مرارًا بانتصاراتكم، أثناء القتال ضعوا الحقيقة نصب أعينكم، واعلموا أن حياة بطرس ليست عزيزة عليه، المهم أن تعيش روسيا في نعيم وتحقق الأمجاد في سبيل رفاهكم.

وفي السَّاعة الثَّالثة من فجر ٢٧ حزيران (يونيو)، وكان الظلام لا يزال مخيمًا دوى هدير ثقيل في معسكر الرُوس، فقد اهتزت الأرض لآلاف من أقدام الجنود، وسنابك الخيل المتجهة صوب مواقع العدو، وهرع المشاة السويديون إلى الخنادق، واستقبلت خيالة مينشيكوف خيالتهم بهجوم مضاد، زحزح السويديون الرُوس قليلًا، فوقعوا تحت وابل نيران المدفعية ثم انسحبوا، زج رنشيلد الذي قاد الجيش السويدي بسبب جراح الملك، خيالته في الجناح الأيسر لتلتف على الجناح الأيمن الرُوسي، إلا أن مينشكيوف وبروس جعلاها تنسحب، وكان تفوق المدفعية الرُوسية في ساحة المعركة كبيرًا للغاية، مئة ومدفعان مقابل ٣٩ مدفعا سويديًا.

وبإيعاز من بطرس سحب مينشيكوف خيالته، وتصور السويديون هذه المناورة تراجعا فهرعوا يلاحقونها، لكنهم وقعوا من جديد تحت وابل نيران المدفعية والبنادق، وحاولوا أن يتخلصوا منها في الغابة، لكن الموت كان ينتظرهم هنا على أيدي الأفواج الرُوسية.

كان بطرس لا يزال يحتفظ بقواته الأساسية في المعسكر، وفي حوالي الثَّامنة صباحًا أخرجها منه، وسحب من الخط الأمامي أفواج الخيالة الخفيفة السِّتة بقيادة شيريميتيف، وتركها جانبًا مع قوزاق سكوروبادسكي، وأمرهم بانتظار التعليمات للا نخراط في المعركة، وحاول شيريميتيف وريبنين أن يقنعا القيصر بالعدول عن سحب وحداتهما:

ـ القتال بتفوق في عدد القوات مضمون أكثر من القتال بعدد متعادل.

ـ العقل والفن ينتصران أكثر من كثرة العدد.

كان بطرس على حق طبعًا، صفَّ الجيش في مخطط القتال: المشاة في الوسط، والمدفعية بين أفواجهم، والخيالة على الجانبين، سدد السويديون ضربتهم إلى وسط المخطط الرُوسي، حيث يتواجد فوج نوفغورود، وأخذت كتيبته الأولى تنسحب، لأنها لم تصمد لضغط العدو الشديد، وتقدمت الكتيبة الثانية، وعلى رأسها بطرس في هجوم زحزح السويديين، وفي تلك الأثناء ضيقت الخيالة الرُوسية الخناق على الخيالة السويدية في الهجوم، ولفظت المدافع الرُوسية نيرانها وقنابل كريات الرصاص، وكبدت السويديين خسائر جسيمة، ويقول أحد المعاصرين:

ـ أطلقت بأمر جلالة القيصر الصلية الأولى بشدة، حتى خيل لقوات العدو بسبب الصوت الهادر لتساقط الجثث على الأرض والبنادق من أيدي القتلى أن بنايات ضخمة هوت على الأرض.

وبإشارة من بطرس شنت الأفواج الرُوسية هجومًا عامًا، وفرَّ السويديون مذعورين، ولم ينصتوا إلى نداءات الملك الذي رفعه حمالوه على الأيدي، فراح يصيح دون جدوى ليقنع قواته المدحورة بضرورة الصمود.

وكان النصر تامًا كاملًا، وأسرع بطرس الذي لا يعرف الكلل كل هذه الأيام، فكتب إلى موسكو عن «النَّصر العظيم غير المتوقع»، وجاءوا بالجنرالات والوزراء السويديين الأسرى إلى خيمته، وسألهم القيصر:

- هل يعقل أني لن أرى اليوم أخي وشقيقي كارل؟

لم يجدوا الملك حيا ولا ميتا، كان قد فر بجلده آنذاك مع فلول جيشه إلى الغرب إلى الدنيبر، وراحت خيالة بطرس تلاحقه، إلا أن الخيول المتعبة للغاية سرعان ما توقفت، وفي مساء ذلك اليوم أرسل القيصر أفواج الحرس والخيالة الخفيفة لملاحقة العدو، وقبل ذلك بعد الظهر، أقام بطرس في خيامه مأدبة للمنتصرين، ودعى إليها كذلك الجنرالات والوزراء الأسرى، وتلك حادثة لها دلالة كبيرة، فإن بطرس، كروسي قح، لا يعرف الرحمة في معاملة العدو أثناء القتال، لكنه يبدي إزاء المغلوبين سماحة الفرسان، وأثنى على شجاعة الفيلدمارشال رينشيلد، ووهبه سيفه، وسمع الحاضرون خطبة القيصر والقائد الروسي الرائعة:

- يوم أمس دعاكم أخي الملك كارل أن تتناولوا طعام الغداء في خيمتي، وها أنتم في خيمتي تفون بالوعد، لكن أخي كارل لم يتفضل بالمجيء معكم إلى خيمتي، ولم يف بوعده، كنت أنتظره على أحر من الجمر، انتظرته من صميم القلب، ليتناول الطعام في خيمتي، ولكن طالما امتنع جلالته من تناول الطعام عندي فأنا أدعوكم أنتم لتناول الطعام.

ورفع بطرس أثناء المأدبة نخبه الشهير:

- نخب صحة معلمينا، صحة السويديين!

ورد عليه بيبر في الحال:

- لقد شكرتم معلميكم جيدًا يا صاحب الجلالة.

وأثناء الحديث مع الأسرى سمع بطرس من بيبر نفسه، ومن رنشيلد، أنهما حاولا من زمان إقناع الملك بقبول الصُلح مع روسيا، وأعلن:

- الصُلح بالنسبة لي أحلى من كل الانتصارات.

وفي سياق المعركة فقد السويديون أكثر من ٨ آلاف قتيل، و٣ آلاف أسير، وفقد الرُوس ١٣٤٥ قتيلاً، واستولى الغالبون على كل العربات،

وكسبوا غنائم كثيرة، وبعد ثلاثة أيام، في الثلاثين من حزيران (يونيو)، عبر كارل ومازيبا، وعدد غير كبير من أنصارهما نهر الدنيبر في موضع بيريفولوتشنا وفروا صوب الممتلكات العثمانية، وفي أواخر تموز (يوليو) أسرع الأثنان إلى بنديري، وسرعان ما توفي الخائن مازيبا هناك، وربما مات ميتة طبيعية، أو تجرع السم، أما الجيش الذي تركه الملك، بقي منه أكثر من ١٦ ألف جندي جياع، محطمي المعنويات، عهد كارل بقيادتهم إلى ليفينهاوبت، فقد سلم نفسه إلى فيلق مينشيكوف البالغ عدده تسعة آلاف رجل، وبهذه المناسبة أمر بطرس صديقه الفيلدمارشال قائلاً:

ـ أرسل لنا دون تعطيل ٥٠٠ حصان مع عربات، لنوصل بها إلى القافلة أسلحة العدو ومعدات جنوده.

ولم تعد عساكر كارل الثَّاني عشر «على قيد الحياة»، وتعززت مواقع روسيا حالًا وبصورة ملحوظة، وقد فهم بطرس ذلك تمامًا، فراح يستعجل جنرالاته، ويطالبهم بأن يطردوا السويديين من مدن وقلاع البلطيق، وكتب إلى أغسطس الثَّاني بأنه سيصل مع جيشه إلى بولونيا، وناقش مع ابراكسين خطة «الصيد» في فيبورغ، وتحرير ريفيل (تالين)، وأفرح الأمير الحاكم بقوله:

ـ لا شك أن رغبة معاليكم في اتخاذ بطرسبورغ مقرًا لكم، قد تحققت بنتيجة سقوط العدو نهائيًا.

وتقديرًا للنصر في معركة بولتافا كوفيء جميع المشاركين فيها، بمداليات فضية (للجنود) وذهبية (للضباط)، وتسلم جميع الجنود منحة بمرتب شهر أو شهر ونصف، وتلقى الجنرالات والضباط ترقية وأوسمة وأراضي، وغدا مينشيكوف فيلدمارشالًا، وغدا غولوفكين مستشارًا، كما حصل شافيروف على منصب معاون المستشار وهلمجرا، وبعد خمسة أشهر، بناءًا على اقتراح كورباتوف كبير جباه الضرائب، صدر مرسوم بطرس بإعفاء الفلاحين من الضرائب المترتبة عليهم طوال كل السنين السابقة، ما عدا السنتين الآخيرتين.

وأخيرًا قدم بطرس طلبًا إلى شيريميتيف ليشيد بخدماته، وهي بالمناسبة خدمات كثيرة:

ـ السيد الفيلدمارشال أرجو أن توصي معالي حاكمينا الأثنين بتقدير خدمتي، كي أحصل لقاءها على منصب لواء بحري، ورتبه ليفتينانت جنرال أقدم في القوات هنا، وحالما يصلك أول شعار من موسكو، أرجوا أن ترسل مرسوم صاحبي الجلالة إلى الأميرال حول منصبي.

إن الصيغة الهزلية لهذا الطلب وذكر «معال حاكمينا الاثنين»، وصاحبي الجلالة (المقصود الأمير الحاكم رومودانوفسكي، ومدير شؤون الزيمستفو بوتورلين) تلمح إلى تصورات بطرس عن خدماته للوطن، ومجهوده الجليل في سوح الوغى، وأبلغه رومودانوفسكي بترقيته في المنصب لقاء « المآثر الفروسية الباسلة والفن الجرئ في الشؤون الحربية»، وقد أبدى القيصر فعلاً أثناء معركة بولتافا مهارة رفيعة، كقائد عسكري، وتعرض للخطر كجندي، فقد أصابت رصاصة العدو قوس سرجه، وأصابت رصاصة أخرى قبعته.

ورد القيصر على الأمير الحاكم رومودانوفسكي بالشكر والامتنان:

ـ إنني لا استحق ذلك، وقد منحتموني إياه من جميل عطفكم عليَّ، وأبتهل إلى الخالق كي يمنحني القدرة على العمل لاستحق تقديركم هذا في المستقبل.

وبعد قليل سافر بطرس إلى كييف، واستمع إلى خطبة فيوفان بروكوبوفيتش رئيس أكاديمية كييف، وهو رجل متعلم للغاية،(درس في كييف ولفوف وكراكوف وروما)، وخطيب مصقع، وكاتب اجتماعي معروف، وكانت مكرسة للنصر في بولتافا، ولبطرس القائد العسكري الذي حقق هذا النصر:

ـ لم نكتف بإرسال الأفواج إلى سوح الوغى، بل واجهت العدو بنفسك، وتوجهت بنفسك صوب السُيوف والرِماح الأولى.

واستمع بطرس إلى الخطيب بارتياح، وربما خطرت على باله مشاهد المعارك الماضية، وخصوصًا المعركة المجيدة الأخيرة التي سطرت صفحة جليلة في تاريخ الوطن.